٢٤٢

HARLEQUIN

روايات احلام

أطيـــاف

شارلوت لامب

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

أطياف

شارلوت لامب

عندما انفتح الباب فَقَد قلب نيكولا خفقة من خفقاته وانقلب كيانها رأساً على عقب. فالرجل الواقف في الباب هو صاحب العينين الرماديتين الغريبتين، دومينيكو!

دفعتها غريزتها إلى الهرب حالاً وفوراً، ولكن يد دومينيكو أمسكت بمعصمها.

- هذا ليس تصرفاً حسناً أبداً... لقد عرفت منذ أن وقعت عيناي عليك أنك تلك الفتاة ذات الشعر الأسود الطويل وذات الوجه الذي تضيئه مليون شمعة.

حاولت الادعاء بأنها ليست المرأة التي يقصد، فقالت له:

- عفواً! ماذا قلت!

ولكنها كانت تعرف أنها ترجو المستحيل... فشبح الموت عاد يلقي بظله على حياتها!

ISBN 9953-15-073-7

لبنان ٢٥٠٠ل.ل.
سوريا: ٧٥ل.س.
الأردن: ١,٥٠ دينار
الكويت: ٧٥٠ فلس
الإمارات: ١٠ دراهم
قطر: ١٠ ريال
البحرين: ١ دينار
السعودية: ١٠ ريال
مصر: ٥ جنيه
المغرب: ١٥ درهم
تونس: ٢ دينار
عمان: ١ ريال

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

Florentine Spring

First published in Great Britain 1977

Harlequin Mills & Boon Limited

© Charlotte Lamb 1977

Translation © Dar El-Farasha - 2002

ISBN 9953 - 15 - 075 - 3

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -

ص.ب: ٨٢٥٤/١١ هاتف/فاكس: ٩٦١-١-٤٥٠٩٥٠- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

حدث خطأ مطبعي في الصفحة الثانية من الاعداد رقم ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣ كان من نتيجته استبدال الاسماء الإنكليزية للقصص المذكورة ولمؤلفيها بالأسماء غير المناسبة. لهذا نعتذر من قرائنا لهذا ونورد فيما يلي الأسماء الصحيحة:

١ ـ القصة رقم ٢٣١ ـ بقايا ليل.

عنوان القصة الانكليزية: Wife for a day

اسم المؤلفة: Kate Walker

تاريخ الصدور: 1998

ISBN 9953-15-056-7

٢ ـ القصة رقم ٢٣٢ ـ سيدة اللعبة.

عنوان القصة الانكليزية: To catch a playboy

اسم المؤلفة: Elizabeth Duke

تاريخ الصدور: 1995

ISBN 9953-15-057-5

٣ ـ القصة رقم ٢٣٣ ـ المطلوب امراة.

عنوان القصة الانكليزية: Ultimate temptation

اسم المؤلفة: Sara craven

تاريخ الصدور: 1997

ISBN 9953-15-058-3

شارلوت لامب

ولدت شارلوت لامب في لندن، قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية. أمضت معظم أيام الحرب تتنقل من منزل قريب إلى آخر، هرباً من القصف. تلقت تعليمها في أحد الأديرة وبعد انتهاء دراستها عملت في مصرف (بنك انكلترا). تزوجت من صحفي ورزقت منه بخمسة أولاد. تعيش مع عائلتها في منطقة (أيل أوف مان).

لشارلوت لامب رصيد من الروايات يفوق المئة، معظمها من إصدارات شركة (ميلز أند بونز).

١ ـ السمكة والصياد

اعتادت نيكولا الوصول باكراً إلى أي مكان جديد تبدأ فيه الطهو، فالمطابخ بنظرها، كالناس، تختلف كثيراً عن بعضها البعض، لذا عليها أن تعرف طريقها في أنحاء المطبخ، من الموقد إلى حوض الغسيل إلى خزانة الأواني، وإن نصف ساعة تمضيها مع هذه التفاصيل كلها تفيدها كثيراً عندما تبدأ الطهو.

وقد وجدت نفسها اليوم في مطبخ صغير يقع في ممرّ ضيق، مع أن الشقة نفسها بدت لها فسيحة أنيقة... كانت صاحبة البيت تعرّفها إلى الغرف العديدة، ومع ذلك كانت أهم غرفة، وهي المطبخ، سيئة التصميم وتفتقر إلى الذوق. فالخزائن صغيرة مظلمة، والثلاجة محشّورة في زاوية لا تحتوي الكثير.

ـ الثلاجة فظيعة، أليس كذلك؟

قالت المرأة لها ذلك وهي تبتسم معتذرة. إنها في سنّ «نيكولا» تقريباً. لكنها أكثر أناقة منها، كان شعرها الداكن اللون مرفوعاً كاشفاً عنقها النحيلة التي لوحتها الشمس وكذلك كتفيها.. ملامحها لاتينية نوعاً ما رغم لكنتها الإنكليزية الواضحة. أمّا وشاح الدانتيل الأسود الذي تضعه حول كتفيها فقد عمّق هذا الانطباع.

بادلتها نيكولا ابتسامتها بنعومة.

ـ لا تقلقي، سأتدبر الأمر، فقد سبق أن طهوت الطعام في مطابخ

www.elromancia.com

أسوأ من هذا.

فكشرت السيدة كريستيانس.

- لم أظن أن هناك أسوأ. أنا مسرورة لرؤيتك سروراً لا يوصف! لقد انجبت طفلي منذ ستة أسابيع فقط، وما زلت حتى الآن أحاول التكيف مع وضعي الجديد، وزوجي يقيم مآدب العشاء الهامة هذه من وقت لآخر. فهي جزء من عمله، كما تعلمين. إنه متفهم جداً، لكنني أعلم بأنه يريد مني أن أوفّق بين العناية بالطفل والاهتمام بحفلته.

- يظن الرجال أنّه يكفي لنا أن نلوّح بعصا سحرية، ليتم العمل من تلقاء نفسه. أنا أعرف طبائع الرجال.

قالت نيكولا هذا باسمة، فقالت السيدة كريستيانس: «ولهذا اتصلت بوكالتك! فاقتراحك بالنسبة لقائمة الطعام رائع. بالمناسبة، أحب كثيراً الفطائر باللحم، فهل يمكنك تحضيرها في هذا المطبخ؟».

فقالت نيكولا ضاحكة: «آه، هذا الطعام سبق أن طهوته في البيت وأحضرته معي، وسأسخنه قبل تقديمه، فلا تقلقي، لن يتغير طعمه فقد غلفته في ورق الألمنيوم».

راحت تفرغ محتويات سلتها، آملة أن تفهم السيدة كريستيانس قصدها من عملها هذا فتتركها وحدها وتخرج.

لكن الفتاة الأخرى كانت تشعر بالوحدة والسأم فاستندت إلى الباب تتفرج على نيكولا بفضول.

- كارل طفلي نائم ولا عمل لديّ سوى تغيير ملابسي. هل يمكنني مساعدتك؟

فهزت نيكولا رأسها: «لا، شكراً! يمكنني القيام بكل شيء بمفردي.. لدينا طرقنا الخاصة في العمل، لقد حضرت الحساء مسبقاً وهو في هذا الوعاء المقفل، هذه هي الـ «باتيه» وهذا هو السردين الطازج. وعلي أن أطهو الخضار، وكلها طازجة وسيكون مذاقها لذيذاً،

فاطمئني. وبعضها قد سبق إعداده للطهو أيضاً. كل ذلك يوفر الوقت».

فقالت المرأة ضاحكة: «أراك جهزت كل شيء. ليت لي كفاءتك! فأنا لا أحسن الطبخ، وأكره الكي. إنني ربة منزل فاشلة».

ترددت نيكولا لحظة، ثم سألتها: «أليس هناك من يساعدك في البيت».

فاحمر وجه الفتاة: «نعم، هناك من تساعدني يومياً. لكنني أحب لو أستطيع عمل كل شيء بنفسي.. لقد تزوجت بعد خروجي من المدرسة مباشرة. وقد تنقل زوجي ثلاث مرات أثناء فترة الزواج. فأقمنا في «ريو» وفي «ميلانو» وهنا في لندن».

- هل أعجبتك إيطاليا؟

كانت نيكولا تتحدث وهي تعمل بيديها النحيلتين الماهرتين. ووجهها النقي البشرة متورد قليلاً أمّا شعرها الحريري الأسود فكان معقوصاً بشريط عند عنقها.

فضحكت الفتاة رغماً عنها.

- إيطاليا؟ لماذا... أنا...

وسكتت فجأة عندما رن جرس الباب.

- آه، آسفة! عليّ أن أفتح.

وعندما انغلق الباب خلفها تنهدت نيكولا بارتياح. فقد أمكنها أخيراً متابعة عملها دون أن تضطر للكلام فهي تعمل بشكل أفضل عندما تركز اهتمامها. وعندما عادت صاحبة البيت أخيراً إلى المطبخ، كان الطعام جاهزاً للتقديم، وكانت نيكولا أمام الموقد ترعى عدة قدور بعينين يقظتين، متفحصة كل شيء للمرة الأخيرة.

- كيف تسير الأمور؟

جاءها صوت السيدة «كريستيانس» من عتبة الباب وقد أضفى ثوب السهرة المرجاني اللون الذي ارتدته، لوناً جميلاً على بشرتها وبدت

www.elromancia.com

الحماسة في عينيها الداكنتين والبسمة على شفتيها.

- أنا مستعدة عندما تجهزون.

أجابت نيكولا باسمة. وكانت قد ارتدت مئزراً أبيض على ثوبها الأسود فبدت كنادلة، وتنهدت الفتاة الأخرى.

- هذا رائع. سوف يفرح زوجي كثيراً. كانت حفلة العشاء التي أقمناها في المرة الأخيرة مهزلة حقيقية... فقد تأخرت ساعة عن موعدها وكانت الأطباق رديئة جداً...

ونظرت بلهفة إلى الحساء الذي يغلي على نار هادئة.

- لقد تفقدت غرفة الطعام لتوي. تبدو رائعة. إنني معجبة حقاً بطعامك... بالمناسبة، ما اسمك؟ ناديني أنا «كارلا» من فضلك.

فابتسمت نيكولا بحرارة: «اسمي نيكولا».

وارتاحت لهذه الفتاة بسبب تصرفها الرضي الذي يختلف كثيراً عن المعاملة التي غالباً ما يعتمدها مستخدموها فبعضهم يظنّ أنها إنسان آلي دون مشاعر أو ذكاء أو إحساس فينهرونها أو يقذفونها بالشتائم. وتابعت تسألها: «هل أقدم الطعام الآن، إذن؟».

- نعم، من فضلك، وسأذهب لأدعو الضيوف للانتقال إلى غرفة الطعام، حظاً سعيداً.

واختفت بابتسامة مشرقة.

عندما دخلت نيكولا دافعة أمامها العربة، كان يجلس في غرفة الطعام الأنيقة تلك ستة أشخاص. كان المضيف جالساً في الطرف الآخر للمائدة، في مواجهتها عند الدخول، فرأته، بنظرة سريعة، رجلاً ذا شعر أشقر ولحية ووجه برونزي يرتدي ملابس السهرة العادية بينما جلس الضيوف، ثلاثة في كل جانب رجالاً ونساء، وكانت الشموع الحمراء تعكس وهجاً ناعماً على وجوههم، يتألق على الكؤوس والأواني الفضية، جاعلاً زهور القرنفل البيضاء دكناء اللون.

توقف الحديث لحظة عند دخولها، ثم استؤنف بشيء من التحفظ.

أخذت نيكولا تسكب الحساء، ثم دارت حول المائدة مرة أخرى بالسردين على أولئك الذين رفضوا الحساء.

لم يقبل أحد الـ «الباتية». ثم انسحبت بهدوء بعربتها لتعيد تحميلها بطبق الطعام الرئيسي والسلطة البديلة التي وضعتها في الطبقة السفلى من العربة، فالضيوف يفسدون أحياناً هذه الحفلات برفضهم تناول بعض الأنواع فارتأت أن تجهز بعض السلطات بديلاً عنها.

وهذه الليلة اختار الجميع فطائر لحم البقر، كما كانت الخضار الطازجة المطهوة جيداً وافرة، مثل الجزر والبازلاء والبطاطا التي قُدّمت كلّها مع الزبدة.

أثناء تقديمها الطعام إلى امرأة شابة ذات شعر قصير أشقر، شعرت بعينيها تشتبكان بعيني الرجل الجالس في الجهة المقابلة والذي يتميز مثل مضيفيه، ببشرة جميلة بلونها الذي لوحته الشمس لكنه يفوقهما وسامةً بسواد شعره الناعم الأملس أما العينان اللتان التقتا بعينيها فهما رماديتان صافيتان هادئتان أخذتا تتأملانها من تحت حاجبين أسودين حسني الشكل، وإذ رأى الرجل ما بدا في عينيها من استياء غريزي، لاحت على زاويتي فمه شبه ابتسامة هازلة.

حوّلت نيكولا نظراتها عنه بسرعة ثم تابعت مهمتها، يرافقها شعور غامض غير مريح بأنها سبق أن رأته في مكان ما.

عندما انتهت من تقديم فطائر اللحم، ابتسمت لها كارلا: «شكراً يا نيكولا».

بادلتها ابتسامتها. ثم رأت، مرة أخرى، عيني ذلك الغريب تحدقان فيها. وهي تدير عربتها للعودة إلى المطبخ لم تستطع قراءة تعابيره، لكنها شعرت مجدّداً بشيء من عدم الارتياح عندما ملأها الإحساس نفسه بأنه مألوف لديها.

أتراها التقته من قبل؟ ولكن أين؟ هل ذلك في حفلة عشاء ما؟ لقد خدمت، طوال السنة الماضية، في الكثير منها. يستحيل عليها أن تتذكر وجوه أولئك الضيوف كلهم، رغم قدرتها الممتازة على تذكر الاسماء والوجوه.

لماذا ملأها هذا الرجل بشعور غريب من التوجس؟ فهي غير معتادة على مثل هذه المشاعر غير الواقعية.

عندما عادت بالحلوى، تسأل أن يختاروا ما بين حلوى الكرز والبرتقال، وبين سلطة الفواكه مع القشدة، شعرت بمزيد من التوجس وهي تسمع بعض الضيوف يتحدثون بلغة إيطالية سريعة.

أن تدع ذلك يزعجها كان، طبعاً، شيئاً سخيفاً، لأن لندن تعجّ بالإيطاليين، ومن الطبيعي أن تصادف بعضهم عاجلاً، أم آجلاً. وليس من سبب يجعل أياً منهم يتذكرها.

ومع ذلك، شعرت بارتياح بالغ عندما أخذت أخيراً تخلي المائدة ثم تبدأ بغسل الأطباق. وهذه المهمة كانت قد نظمتها مسبقاً أيضاً، فقد غسلت بعضها بين فترات تقديم الطعام، كما نقعت بالماء الساخن ما يحتاج إلى ذلك ليصبح غسلها سهلاً.

كانت قد فرغت تقريباً عندما انفتح باب المطبخ. ونظرت حولها متوقعة أن ترى السيدة كريستيانس لكن القادم كان ذلك الرجل.

ـ مساء الخير. أرجو ألاّ أكون متطفلاً، لكنني أريد أن أتحدث إليك قبل أن تذهبي.

قال لها ذلك بإنكليزية سليمة، فقالت بجفاء: «آسفة. فأنا مشغولة جداً. إذا كان الطعام غير سائغ...».

فقاطعها بإشارة منه، وقد ضاقت عيناه: «الطعام ممتاز، ولا علاقة له بما أريد قوله. صححي كلامي إذا أخطأت، ولكن...».

وإذا بالسيدة كريستيانس تدخل مقاطعة إياه بصوت مرتفع ذهولاً:

«دومينيكو؟ ما الذي تفعله في المطبخ؟».

ثم ابتسمت هازلة: «ام تراني غير لبقة بهذا السؤال».

بدا التردد لحظة على الغريب، ثم ضحك قائلاً: «كنت أهنىء طاهيتك على هذه الوجبة الرائعة... متذكراً الوجبات الأخرى التي تناولتها في بيتك، يا عزيزتي كارلا!».

الآن، وقد ذكر كل منهما اسم الآخر، تمكّنت نيكولا من تمييز اللكنة الإيطالية الخفيفة بوضوح.

ـ عد إلى الآخرين، يا دومينيكو! أريد التحدث مع نيكولا الآن.

قالت له كارلا هذا تطرده ببساطة كما تطرد الأم ابنها، ووجهها مليء بالعطف.. أطاعها باسماً، لكنه التفت، قبل أن يغلق الباب، لينظر إلى نيكولا بحدة، بينما قالت كارلا تشكر نيكولا:

ـ لا أدري كيف أشكرك، فقد جعلت الحفلة ناجحة تماماً. رجال الأعمال، معارف زوجي، كانوا مسرورين تماماً. وأنا لا أشك في أنهم سيغرقونني بالأسئلة عنك. أخبريني، هل تجدين هذه المهنة مريحة؟ هل تحبين الطهو؟

فأجابت نيكولا باسمة: «أنا أعشقه».

ـ ولكن، هل تعملين كل مساء؟

ـ معظم الأمسيات!

ـ ألا تشعرين أحياناً بالإرهاق؟ ألا تفضلين لو تعملين أثناء النهار؟ في فندق، مثلاً؟ أو في مطعم لندني جيد؟

ـ معظم الفنادق والمطاعم اللندنية الجيدة تفضل التعاقد مع الرجال. ومن الغريب أنهم يرون أن النساء غير ملائمات لذلك المستوى من المهنة، لكنني أحب العمل في المنازل الخاصة لأقابل الناس. فالعمل للوكالات يتيح لي اختيار أوقات عملي. أحياناً أواصل العمل أسابيع دون توقف وأحياناً أخرى أبقى أياماً دون عمل.

- وأنت طبعاً غير متزوجة.

سألتها كارلا هذا متنهدة.

فشحب وجه نيكولا وقالت بقوة: «لا».

- لا.

أساءت كارلا فهم لهجتها، فقالت: «آه، آسفة! أتراني كنت وقحة بهذا السؤال؟ لقد أحببتك من النظرة الأولى، وضيوفي هم من معارف زوجي في العمل أكثر منهم أصدقاء لي، هذا عدا دومينيكو طبعاً».

وأشرق وجهها مرة أخرى عندما ذكرت اسمه.

نظرت إليها نيكولا بفضول فقد بدت على علاقة وطيدة بدومينيكو الرمادي العينين. اتراهما قريبين؟ أم صديقين قديمين؟

- سأخبر الوكالة عندما أدفع لهم الحساب، بإعجابي الشديد بك. هل أجرح كرامتك إذا قدمت إليك هبة؟.

- هذا لطف بالغ منك، لكن الهبات عندنا توزع على الجميع، فأرجو منك أن تضيفيها إلى الشيك الذي ستدفعينه.

- هذا يبدو غير شخصي.

قالت كارلا هذا باكتئاب وعلى الفور خلعت من معصمها سواراً قدمته إلى نيكولا: «إنها حلية زائفة طبعاً، فأرجو منك قبولها تذكاراً. سنغادر لندن قريباً جداً عائدين إلى إيطاليا. إنها تلائمك بحجارتها الخضراء التي تشابه لون عينيك.

فقالت نيكولا وقد تملكها التأثر: «شكراً، هذا لطف بالغ، وسأحتفظ بها دوماً».

غادرت المنزل باكراً، خائفة قليلاً من أن يعود دومينيكو إليها بعد أن عادت كارلا إلى ضيوفها، ثم أسرعت إلى بيتها. وعندما دقت الساعة الحادية عشرة، كانت قد دخلت الشقة التي تقيم فيها مع أختها ڤانيسا وصديقتها من أيام الدراسة «بيس والشي».

كانت الاثنتان نائمتين، ڤانيسا تنام دوماً في العاشرة والنصف فهي عارضة أزياء، وحالياً هي مطلوبة جداً للمصورين الفوتوغرافيين لأن ملامحها الأنيقة تحمل إمارات المكر والدعابة، ما يبدو أنها تتلاءم والمشاهد العصرية. كانت حياة ڤانيسا محكومة بقوانين لا تتغيّر فهي ترغم نفسها بقسوة، على النهوض من النوم في السابعة صباحاً، وبعد ذلك تستحم ثم تتناول فطوراً مؤلفاً من عصير برتقال وقهوة دون حليب. ثم تمضي ساعة في ارتداء ملابسها. وبعد ذلك تخرج إلى العمل في وقت محدد، حيث تقوم بعمل شاق يستغرق ساعات طويلة، ولا تأكل إلا ما يقيتها لتبقى حية لئلا تضيف غراماً واحداً إلى قوامها الرشيق. هي طويلة ممشوقة القوام، شعرها أشقر مجعد، تظلل عينيها الزرقاوين أهداب صناعية طويلة سوداء.

أما بيس فصغيرة الجسم ذات عينين كبيرتين بنيتين، متلائمتين مع شعر كثيف بني ناعم كالحرير، وهي أقدم صديقة لنيكولا. دخلتا المدرسة معاً في سن الخامسة وأتمتا علمهما جنباً إلى جنب فتخرجتا من الثانوية العامة، ثم دخلتا فيما بعد معهد العلوم المنزلية نفسه ولم تفترقا إلاّ عندما أتمتا تعليمهما إنما لفترة قصيرة. لكن تأثيرها على نيكولا كان قوياً، إذ أن تلك الشهور الستة التي فرقتها عن «بيس» كانت حافلة في حياتها، وعندما قابلت بيس مرة أخرى كانت شخصاً مختلفاً وكانت شاكرة لطف بيس وعطفها حينذاك.

ليست «بيس» فتاة ضعيفة مستسلمة بكّاءة، على كل حال، بل هي قوية نشيطة عاقلة، ذات منطق هادىء، وقدرة على طمأنة كل نفس تشعر بالكآبة.. قررت أن تعلّم العلوم المنزلية، لأنّها تشعر بالسرور عندما تعلّم الآخرين ما تحسنه هي. وكانت نيكولا تعتمد عليها في المساندة والمساعدة، لكنها مؤخراً، أخذت تتساءل إلى متى ستستمر في ذلك. فقد أخذت علاقة بيس بأحد زملائها المعلمين تتوطد أكثر فأكثر وهو

رجل هادىء يعلّم الرياضيات.

حتى ڤانيسا، التي نادراً ما تلاحظ شيئاً يتعلق بالآخرين، قالت منذ أيام: «لقد بدأت بيس تفكر في الزواج.. علينا أن نجد شريكة غيرها في الشقة».

من السهل العثور على الشريكة، ولكن أين تجد نيكولا حاضنة موثوقاً بها لأجل «بول»؟

مشت على أطراف أصابعها إلى الغرفة التي تنام فيها معه، وكان ضوء خفيف يلمع بجانب مهده، حيث نام على جنبه متكوراً، واضعاً يده الوردية تحت خدّه، منفرج الشفتين وقد انسدلت أهدابه الكثيفة على وجنتيه.

الشعر القاتم والبشرة الذهبية والملامح الجميلة، وقفت تتأمل كل ذلك بحرقة وهي تتنهد، إنه يزداد كل يوم شبهاً بأبيه! تتساءل أحياناً إذا كان بإمكانها احتمال ذلك، ولكنها تعلم أن طفلها يشفي نَدوب الجروح التي خلّفتها فيها الحب والخسارة، فيدفن برفق الذكريات المرّة تحت أخرى جديدة من البهجة والسرور.

لن تستطيع أبداً احتمال فقدانه! واستدارت عائدة بهدوء إلى غرفة الجلوس المشتركة. طلبت رقم الهاتف وهي تقف في الظلام. ورنّ الجرس في الطرف الآخر فترة طويلة، وأخيراً التقط السماعة شخص ما يسألها بصوت ناعس غاضب.

- نعم؟

- درو أنا نيكولا.

- نيكولا؟ يا إلهي، يا فتاة! أتعرفين كم الساعة الآن؟

- أنت تعلمين أنني أنام باكراً في بحر الأسبوع!

- آسفة. لكن الأمر مستعجل.

- هل حدث شيء مخيف لك؟ هل تحرش بك أحد يا نيكولا..

كنت أخاف دوماً من حصول شيء كهذا...

- لا، يا درو... الأمر هو...

- هل أحرقت طعام عشاءٍ ما؟ وهل عصف الغضب بعقولهم؟ سأدافع عنك يا عزيزتي، فلا تخافي...

- هل لك أن تصغي، يا درو؟

فتنفس بعمق وضحك.

- آسف، تكلمي. كلي آذان!

- تعني كلك ألسنة؟

- هذه ملاحظة فجة، يا عزيزتي!

- كفى مقاطعة، يا درو! اسمع، إذا سألك أي شخص عن اسمي وعنواني، فلا تعطه إيّاهما أرجوك، مهما قال لك.

ساد صمت قصير. تصورته مستغرقاً في التخمين بذكاء، وشعره العسلي اللون قد شعثه الرقاد.

- عزيزتي، تعلمين أن القاعدة عندنا أننا نعطي الأسماء الشخصية الأولى فقط... لا أسماء العائلات ولا العناوين. ولطالما كنت حازماً في هذا الأمر، أليس كذلك؟

- نعم، أعرف هذا، ولكن...

فسألها مفكراً: «هل الأمر مختلف الآن؟ هل الأمر هام، ولماذا بالضبط؟ من يقتفي أثرك؟ حبيب محبط؟».

فأجابت باختصار: «لا. أرى أن آخذ عطلة لعدة أيام يا درو. هل يمكنك أن تلغي الحجوزات التي حجزتها لأجلي؟».

- سألقي نظرة غداً على دفتر الحجوزات.. اتصلي بي باكراً صباح الغد. سأدفع لك نقودك وأمنحك عطلة.

وضعت نيكولا السماعة ثم دخلت الحمام وعندما أوت أخيراً إلى سريرها كان الوقت منتصف الليل.

رأت في الحلم «باولو»، وهي تتبعه في متاهات مظلمة حيث كان جسمه الممشوق قريباً منها ولكن بعيداً عن متناولها في الوقت نفسه. . التفت مرة إلى الخلف وابتسم لها، لكن ملامحه لم تلبث أن تلاشت بطريقة مراوغة مثيرة للاشمئزاز.

واستيقظت وهي تنشج بخيبة أمل مرة، لتسمع «پول» يناديها: «ماما. . . احمليني! الآن، يا ماما، أريد أن تحمليني الآن. . .».

كانت الساعة السابعة والنصف. وشعرت بتبلد وثقل في عينيها. رفعت پول من مهده وأخذته إلى الحمام.

وكانت ڤانيسا خارجة منه لتوّها، تاركة إيّاه عابقاً بعطرها.

قبلت ڤانيسا پول، وابتسمت لأختها ثم اتجهت إلى المطبخ ومعطف حمامها الأبيض يظهرها أشبه بغلام رشيق ذي ساقين طويلتين سمراوين.

كانت بيس قد أعدت فطور پول عندما أحضرته نيكولا إلى المطبخ حيث ينتظره كأس عصير البرتقال إلى جانب بيضة مسلوقة، وجلس هو امام طعامه بصمت. وبينما انشغل بطعامه، جلست نيكولا بجانبه تقضم شريحة رقيقة من الخبز المحمص. قالت بيس، ناظرة إليها.

- كلي بيضة، فستفيدك. تبدين شاحبة هذا الصباح. أتشعرين بغثيان من البرد؟

فهزت نيكولا رأسها: «أمضيت ليلة سيئة».

- أسنان پول؟

- لا. بل هي أفكاري الخاصة.

وبدا القلق على بيس.

- ما الذي حدث؟

- لا شيء، في الواقع، أظنني بحاجة إلى راحة، فقد قمت بعمل كثير مؤخراً، وقد طلبت عطلة من درو.

- فكرة جيدة. قريباً سيصبح پول في سنّ تخوّله الدخول إلى الحضانة فتتمكنين من العمل بنصف دوام.

عندما وصلت نيكولا إلى مكتب الوكالة، حياها درو بابتسامة عريضة. .

- لقد وصلني سؤالان عنك. . . أحدهما من رجل عميق الصوت فتخلصت منه فلم يحتجّ كثيراً على ذلك. وبعده حالاً تلقيت مكالمة هاتفية من المرأة التي عملت لديها الليلة الماضية. لقد طلبت عنوانك لكي تشكرك شخصياً، كما قالت، لكنني رفضت، حاولت أن تصرّ على ذلك لكن بدون جدوى حاولت أن تحجزك لعشاء آخر هذه الليلة. فأخبرتها بأنك محجوزة طوال الأسبوع القادم.

- شكراً يا درو. أنا ممتنّة لك.

وشعرت بنفسها ترتجف، وتمنت ألاّ يكشفها صوتها فنظر إليها بإمعان.

- والآن، أخبريني عن سبب هذا كلّه، يا عزيزتي! بالنسبة إلى الرجل، هذا مفهوم، ولكن ماذا عن المرأة؟

- الأمر معقد جداً.

منحها «شيك» وحصتها من الهبات، شارحاً لها التفاصيل باختصار، فشكرته وهي تضع الشيك والنقود في حقيبتها، وما إن همّت بالخروج، حتى رن جرس الهاتف فأمسك دور بيدها يعيقها عن الذهاب بصمت.

تحدث على الهاتف بلجهة أنبأتها بأنه زبون من طبقة راقية وعندما وضع السماعة، قال لها مكشراً:

- آسف، إنها «الكونتيسة ناڤستوك». تريد منك أن تطهي لها العشاء الليلة. . . عشاءً هاماً جداً لشخصين. طلبتك شخصياً وهكذا لم أستطع أن أرفض. وهي دوماً تشيد بك بثنائها.

www.elromancia.com

- لاثنين فقط؟ لكنها دوماً تدع خادمتها تطهو لها الوجبات البسيطة، وهي لا تتصل بنا إلا لأجل المناسبات الكبيرة الرسمية.

- يبدو أن خادمتها في إجازة مرضية ولا شك أنه تسمم غذائي.

وضحك.

- يا عزيزتي نيكولا، آسف، لم أستطع أن أجرحها، خصوصاً وهي تذكرنا دوماً بصفتنا أصدقاء لها، ولقد أرسلت لنا عدداً من الزبائن بفضل مدحها إيانا. وهذا النوع من الدعاية الشفوية لا يقدّر بثمن.

تنهدّت: «أظن ذلك، لا بأس يا درو. سأقوم بذلك. ما هي قائمة الطعام التي طلبتها؟».

- لقد تركت لك حرية الاختيار. اشتريها واحضريها معك، الأسعار لا تهم.

- أشياء خاصة غير عادية؟

- أظن ذلك! متعي نفسك بالاختيار ولو مرة.. ستفرحين حقاً بطهو الطعام الذي تحبينه.

راقت لنيكولا هذه الفكرة. فإعداد عشاء غير عادي لاثنين فقط هو حقاً شيء فريد من نوعه.

دفعت پول في عربته أمامها إلى متاجر الأطعمة المفضلة لديها حيث اشترت المكوّنات المختلفة، ثم اتصلت ببيس في المدرسة لتسألها إن كان بإمكانها أن تهتم بپول هذه الليلة أيضاً.

لم تكن بيس مشغولة، وقد تملكها الفضول بالنسبة إلى الكونتيسة.

- أتراها تستضيف عشيقاً؟

فضحكت نيكولا: «إنها في السبعين من عمرها».

- وماذا في ذلك؟ العمر لا يضع حداً لهذا، أليس كذلك؟ لقد حان الوقت لكي تبحثي عن رجل آخر، يا نيكولا.

لم تجب نيكولا. وشعرت فجأة بطعنة ألم ملأتها كرباً.

- آه، يا نيكولا! أنا آسفة. كان يجب أن أمسك لساني، لكنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بأن عليك أن تضعي الماضي وراء ظهرك يوماً ما، وكلما طال بك الوقت لذلك، زاد الأمر صعوبة.

فقالت نيكولا بغضب: «ربما هذا هو الصواب. فأنا لا أشك في أنني مضطربة نفسياً! لكن الحديث عن ذلك شيء، والقيام به شيء آخر».

- نيكولا، إنه ميت! لن يعود قط!

قالت بيس ذلك بخشونة، وهي تعرف ما قد يسببه من مرارة لها.

- أنا اعلم أنه ميت.

وتهدّج صوتها: «فأنا لم أنس ذلك لحظة».

- لكنك لا تصدقين ذلك بشكل يجعلك تتقبلينه، يا نيكولا. إنك متعلقة به طوال الوقت، وأنت لا تدعينه يذهب، أليس كذلك؟

- بيس. أنت لا تفهمينني...

وابتلعت نيكولا غصة، ثم تابعت بهدوء: «يجب أن أذهب الآن، إلى اللقاء».

وعندما تركت الشقة ذلك المساء، كان پول نائماً. سارت إلى منزل الكونتيسة الذي يقع على مرمى حجر من شقتها، ثم دقت الجرس. وعندما انفتح الباب، توقف قلبها عن الخفقان. فالرجل الذي فتح لها هو ذاك الغريب دومينيكو ودون تفكير. استدارت نيكولا لكي تهرب، لكن يده انطلقت تمسك بمعصمها. وكانت أصابعه طويلة باردة قوية.

- هذا ليس تصرفاً حسناً. لقد عرفتك على الفور. رأيت صورة لك مرة. وأنا واثق أنك تلك الفتاة ذات الشعر الطويل الأسود الوجه الذي تضيئه آلاف الشموع...

قال ذلك برقة، منحولاً إلى اللغة الإيطالية، عالماً بأنها ستفهمه. حاولت أن تدّعي الجهل، فقالت وهي تهز رأسها: «آسفة... ماذا

تقول؟».

لكنها كانت تعلم أن لا أمل في التجاهل. قال بسخرية: «ترين أننا، أنا وأنت، أنسباء. باولو هو ابن عم أبي، لكنني عرفته منذ مولده. لقد حدثني كثيراً عنك يا نيكولا، فهو أحبك كثيراً».

تدفقت من عينيها دموع ساخنة، وأفلتت يدها من يده: «دعني أذهب! لا أريد أن أكون جزءاً من أسرتك فقد تجاهلت أسرة «فارينز» وجودي أثناء حياة باولو، ولم يرسلوا أحداً إلى جنازته، وأنا الآن أريد أن أنساهم».

ودفعته بعيداً وهربت مستغلة دهشته المفاجئة. وكان ثمة زقاق خلف المنازل فدخلت فيه، متوارية بجانب جدار منهار. وتقدم هو بسرعة نحو الزقاق حيث توقف ينظر في داخله وتابع طريقه بعدها بسرعة.

* * *

٢ ـ وقت الهروب

عندما تلاشى صوت وقع خطوات دومينكو، خرجت نيكولا من الزقاق ودموعها على خديها، وتصاعد مواء قطة كانت مختبئة في الحدائق فقفزت مجفلة، ومرت بها سيارة، اخترقت اضواؤها الظلام ما أعماها مؤقتاً لكنها عادت تقفز مرة أخرى وهي تشهق عندما خرج شخص من الظلال ثم أمسك بذراعها بقوة.

ـ عليك أن تتحدثي معي عاجلاً أم آجلاً، يا نيكولا. فلماذا لا تنتهين من هذا الأمر؟

تنهدت ببطء واستسلام، ثم قالت ببرودة:

ـ حسناً جداً، ما دمت مصراً... لكنني أفضل لو تدعوني الآنسة مايفيلد.

ـ لماذا تتسمين باسمك قبل الزواج؟ هل تشعرين بالخزي من اسم باولو؟

ـ لا أريد أي علاقة بأسرته... وأريد أن أنسى أنه من أسرة فارينز.

وكانت، بهذا القول، تهدف إلى إظهار كبريائها، ومع ذلك كانت خائفة من أن تكون تظهر عدم التهذيب. قال عابساً: «وهكذا أخرجت زوجك من ذاكرتك؟».

ـ هذا غير صحيح. فقد أحببت باولو، ولا صلة لاسمه بذلك الحب.

www.elromancia.com

ـ الإنسان هو ما صنعه ماضيه، وأسرة فارينز صنعت پاولو.

قال دومينكو ذلك بهدوء، فصرخت ساخطة:

ـ لقد انفصل عنهم، بعد أن جاء إلى انكلترا. شعر بنفسه متحرراً من قيود تاريخ أسرتك فقد حاولت أسرته أن تقيّده طوال عمره، ولم يعثر على ذاته ألاّ بعد أن هرب من إيطاليا.

سألها دومينكو متأملاً وهو يقودها عائداً بها إلى بيت الكونتيسة: «هل هذا ما أخبرك به؟».

ـ نعم، أطلعني پاولو على الحقيقة بأكملها، فقد كنا متقاربين جداً.

وارتجف صوتها ورفعت رأسها متحدية. أغلق دومينيكو الباب، ثم استدار يواجهها تحت نور الثريا الناعم المعلقة فوقهما. وتأملها بعينيه الرماديتين.

ـ تصلّب شفتك العليا يدل على أنك ما زلت حزينة. فأنت تتحدثين عن پاولو وكأنه كان شفافاً كالزجاج.

ـ كان كذلك بالنسبة إليّ.

فهز رأسه: «لا. لقد كان إيطالياً رقيقاً حساساً، ومع ذلك قوياً كخيط من الحرير. من المؤكد أن پاولو قال لك الحقيقة، الحقيقة التي تمنيت أن تسمعيها. ولكن ماذا عن الحقائق الأخرى، تلك الحقائق التي لم ترغبي بسماعها؟ أليست هي حقائق أيضاً؟».

نظرت إليه دون أن تفهم.

ـ ما الذي تتحدث عنه؟ أتنكر أن أسرتك تمنّت أن تتملك پاولو.. أن ترغمه على الامتثال لأوامرها؟ وأنه عندما تركهم ورحل، وقابلني ثم تزوجنا، رفضوا أن يكتبوا إليه رداً على ما أخبرهم به، ثم لم يكاتبوه بعد ذلك قط؟

هز كتفيه بصمت ورزانة إيطالية المظهر، وبعد أن تردد لحظة، قال: «هذه صورة من الحقائق، نعم. صحيح أن الأسرة أرادت الطاعة

من پاولو. ذلك أن أباه رجل عجوز... فقد كان في الخمسين عندما ولد پاولو، ومن الصعب على العجوز أن يتفهم. إنّ پاولو أصغر ابنين، وعلى الأكبر أن يرث معظم الأراضي. فمن الغباء التقسيم وبالتالي إضعاف الثروة، فكان أن رغب والد پاولو أن يزوجه احدى قريباته، وهي وريثة غنية وبهذا يغنيه هو أيضاً ويتركه في أمان. لكن پاولو رفض... والأسوأ من ذلك أنه ترك البيت. فتحطم قلب والده».

ـ تحطم قلبه؟ هل تتوقع مني أن اصدق ذلك بعدما حدث؟

ـ انتظري من فضلك، واحكمي عندما تعلمين المزيد. لقد كتب پاولو إليهم يقول إنه تزوج. وتساءلت الأسرة بلهفة عمن تكون تلك التي اختارها... پاولو الذي رفض تلك الوريثة الغنية؟ أيمكنك أن تتصوري شعورهم عندما سمعوا أنه اختار... طاهية؟ خادمة؟

ـ كل تلك الغطرسة؟ هذا هو السبب إذن؟ لست مناسبة لأسرة فارينز؟

قالت نيكولا ذلك وقد خنقتها المرارة والذلة.

ـ ألم يشرح لك پاولو أن هذا سبب غضبهم؟

ـ كل ما قاله هو أنهم أرادوا منه أن يتزوج لأجل المال، وليس الحب.. لقد أخبرني پاولو بالحقيقة، كما قلت لك ولم يترك سوى أكثر أجزاء الحقيقة إيلاماً، لم يشأ أن أعلم أنهم رفضوني لذاتي.

كان يتكلم بالإيطالية. فتحوّل الآن إلى الإنكليزية وقال بسرعة:

ـ لصفح عنه أبوه على الأرجح حينذاك لو لم يُنقل إلى المستشفى مريضاً بعد زواجكما على الفور.. لقد سبّبت الصدمة له سكتة دماغية، وقد شفي ببطء، ولكن عندما وصلت برقيتك تبلغ الأسرة بموت پاولو، كان والده ما يزال شديد المرض. ففضلت الأسرة ألاّ تبلغه الخبر حينذاك، لكنني ظننت أن شخصاً ما قد كتب إليك يعزيك باسم الأسرة. ومن المؤكد أن أكاليل الزهور قد أرسلت إلى الجنازة.

فقالت ببرودة: «لا شيء. لقد ذهب پاولو إلى قبره لا يشيعه سواي وأسرتي».

- لا أفهم هذا، لا بد من خطأ ما. فأنا واثق...

وسكت فجأة ثم تابع هازاً كتفيه.

- حسناً بإمكان هذا أن ينتظر.. لدينا أمور أخرى علينا مناقشتها، لم يكن پاولو الخسارة الوحيدة لأبيه. فمنذ ثلاثة أشهر مات سيزار، أخوه الأكبر، بحمى استوائية أثناء وجوده في أفريقيا في رحلة عمل.

- آسفة. هو متزوج، أليس كذلك؟ هل لديه أطفال؟

- لا. لم ينجب أطفالاً، فقد ماتت زوجته منذ عام، أثناء الولادة، ومات الطفل أيضاً.. كانت مخلوقة رقيقة للغاية، المسكينة لوسيانا.

- إذن، من ورث أملاك فارينز؟

وشحب وجه نيكولا وبدا عليها الحذر. أتراه يعلم؟ هل اكتشف أمر ابنها پول؟ لم تفكر قط من قبل في الناحية القانونية من ذلك، لأنها كانت تدرك أن پاولو لا يملك ما يورثه لابنه، إنما الآن، ما الذي عليها أن تفعله وأملاك فارينز ربما أصبحت إرثه؟

لم تشأ إقامة أي علاقة مع أسرة پاولو، فقد تعمدت أن تغفل إبلاغهم بولادة پول، إذ لم ترغب يوماً أن تكون جزءاً من أسرة فارينز، فخافت إن هم علموا بأنها حامل، أن يطالبوا بالطفل.

بقيت شكوكها الآن، لكن مخاوفها ازدادت عمقاً.. إن پول إنكليزي وهو ابنها، ويجب ألا يكون لأسرة أبيه علاقة به. تابع دومينكو قائلاً: «لا يوجد الآن وارث مباشر. ولا شك أن لورنزو الأب، حين يكتب وصيته، سيقرر... لكنه، حتى الآن يرفض كتابتها».

- ولكن، حتى يكتبها، من سيكون الوارث؟

فهز كتفيه.

- أتصوّر أنني أقرب الوارثين.

نظرت إليه بفضول، وقد بدا عليه عدم الاهتمام. ولكن أهو كذلك حقاً؟ من الأشياء القليلة التي حدثها پاولو عنها، تصورت أن ثروة آل فارينز طائلة.

نظر إليها وقد ابتسمت عيناه الرماديتان: «والآن، بعد أن بدّدنا بعض سحب الماضي، فهل لك أن تفكري في طلبي».

فقالت بتهكم، تتصنع البلاهة: «آه! أتريد أن أطهو العشاء لك وللكونتيسة؟ أين هي الكونتيسة بالمناسبة؟».

فقال ضاحكاً: «تصرّفت بلطف ورضيت أن تمثل معي هذا الدور. أظنك فهمت الغاية من حضورك فلا علاقة لما أطلبه منك بالعشاء... أريد أن تعودي معي إلى إيطاليا هذا الأسبوع لتري والد پاولو».

واهتز صوتها سخطاً محرقاً: «أبداً! هذا غير ممكن!».

نظر إليها بزرانة مقطباً جبينه معاتباً: «إنه رجل عجوز على وشك الموت. وقد فقد ولديه، ومهما كان رأيك فيه، فهما ابناه الغاليان. لِمَ لا تمنحينه مثل هذه الصدقة البسيطة؟».

- وأي صدقة أراني إياها هو أو أسرته؟

وأجفلت نيكولا وهي تفكر في پول، الذي قد تفقده إذا سمحت لآل فارينز بأن يكتشفوا وجوده. عليها ألاّ تسمح لهم بالتكهن بأن هناك طفلاً. واستدارت على عقبيها.

- لا آسفة فهذا مستحيل، تصبح على خير.

لم يلحق بها. ونظرت حولها وهي تدور حول الزاوية، لكنها لم تر له أثراً. ولكنها عندما أصبحت في شقتها شعرت بالسرور رغم صعوبة تجنبها أسئلة بيس التي انفجرت تسألها من سبب قدومها المفاجيء.

وفي اليوم التالي اتصلت بدرو في الوكالة وأخبرته بأنها لم تعدّ عشاء للكونتيسة، قائلة بهدوء: «لم يكن ذلك مطلوباً».

فبدت اليقظة في صوت درو: «أهه! الكونتيسة إذن كانت تمثل

دوراً؟ أكاد أموت نضولاً، كما تعلمين، يا حلوتي، ألن تخبريني؟ ليست «المافيا»، أليس كذلك؟».

فقالت مازحة: «شيء من هذا القبيل».

- لا! أحقاً؟

وبدت لهجته بين الانبهار وعدم التصديق.

- لا، فأنا أمزح.

وغيرت الموضوع للحظات قبل أن تلقي السماعة. بعد هذا اللقاء، باتت تستيقظ كل صباح يتملكها التوتر فلا تجرؤ على الخروج من الباب الأمامي خوفاً من أن تصادف دومينيكو فارينز، لكن الأيام تتابعت دون أن تراه، وتدريجياً تلاشت مخاوفها.

أخذت تفكر وهي تتسوق بأنه قال إنه سيعود إلى إيطاليا قريباً، ولا بد أنه غادر الآن إنكلترا. يمكنها أن ترتاح الآن. ولو لم يقبل رفضها نهائياً لعاود الاتصال بها بشكل ما. فشكله وسلوكه ينبئان عن رجل ذي عزم. وما دام لم يتصل بها مرة أخرى، فيمكنها أن تعتبر أنه صرفها من ذاكرته.

وعلى كل حال، لم تبد أسرة فارينز أي اهتمام بزوجة پاولو من قبل، ومن المشكوك فيه أن تبدي ذلك الآن لقد تصرّف دومينيكو فارينز بنزوة إيطالية، وقد لا يكون جاداً في اعتقاده بأن لورنزو فارينز العجوز لديه أي رغبة حقيقية في رؤية أرملة ابنه.

حسناً، لا بد أنه نسي كل شيء الآن، هذا ما فكّرت فيه نيكولا في قرارة نفسها وهي تبتسم لابنها پول وهي تدفعه أمامها في عربته، بينما كان يدندن بصوت خافت.

كانت أشعة الشمس باهتة وهي تتساقط كأوراق زهرة صفراء على سطوح ومداخن لندن، وبين حين وآخر كانت تمر سحابة عابرة لتحجب الشمس فتعود الشوارع إلى كآبتها، ثم تتبدّد فيعود الوهج الذهبي يتألق

على واجهات المتاجر وزجاج السيارات.

وعندما استدارت لتعبر الشارع، التوى قلبها خوفاً. فقد رأت رجلاً طويلاً اسود الشعر واقفاً على الرصيف المقابل ينظر إليها. غام نظرها فترة، ثم عاد قلبها إلى خفقاته الطبيعي وأخذت ترى بوضوح، وكان ذلك الشخص غريباً تماماً.

هذا الحادث البسيط ترك تأثيره فيها ورأت أنها، من الآن فصاعداً، لن تتحرر من الخوف على الإطلاق. حتى ولو عاد دومينيكو فارينز إلى إيطاليا الآن، يمكنه أن يعود إلى لندن في أي وقت. ماذا لو زارها في شقتها؟ واكتشف وجود ابنها؟

نظرت إلى شعر پول الأسود بلهفة بالغة. يجب ألا يعلموا بأمره أبداً، ومعرفتها بالأسرة تجعلها تدرك انهم سيحاولون امتلاك الطفل فأموالهم تسمح لهم أن يوكلوا محامين قادرين على تحويل كل حيلة قانونية لمصلحتهم.

تساءلت عما إذا كان عليها أن تستشير محامياً فهي لا تعرف الكثير عن القانون لكي تميّز حقوقها. فهل يمكنهم القيام بشيء؟ من المؤكد أن الأم والأرملة، هي في أمان تام، والمحكمة الإنكليزية لا تسمح ابداً بأن يؤخذ الطفل من أمه الإنكليزية. ورغم أن والد طفلها إيطالي، لكنّ ابنها إنكليزي بالولادة هنا، ووفقاً للسجلّات، هو انكليزي الجنسية.

ومع كل ذلك، لم تستطع التخلص مما ينتابها من مخاوف، فهي فقيرة معدمة، وأسرة فارينز ثرية، ولديها أسلحة قد تكون خطرة.

قالت في نفسها بأن عليها أن تعود إلى التواري مرة أخرى، فتغادر لندن مع پول إلى الأرياف. فقد رأت إعلانات يطلبون فيها مدبرات منازل ويقبلون طفلاً واحداً معها، وهكذا يمكنها أن تجد وظيفة بهذا الشكل، وتأخذ پول معها.

ولكن ماذا عن ڤانيسا؟ وعضت شفتها، فقد كانت شديدة الولع

بأختها، ولكن إذا علمت ڤانيسا أو أي شخص آخر، إلى أين ذهبت، فهذا يشكّل خطراً كبيراً عليها، وكانت، في أعماقها، تشك أن بإمكانها الاعتماد على ڤانيسا تماماً، فهي تحقد، وتتصرف أحياناً بطرق غير نزيهة... ليس بمعنى السرقة، ولكن بمعنى أنها قد تحنث بوعدها أو تتعمد تمثيل دور خسيس، وقد تخبر آل فارينز عن پول إذا حصلت على رشوة بطريقة ملتوية، وقد سبق لنيكولا أن تألمت مراراً من أعمال أختها تلك، وإذا علمت ڤانيسا بثروة آل فارينز التي تنتظر پول، فقد يغريها ذلك.

اشترت عدة مجلات عادت بها إلى شقتها. طهت غداء پول وأطعمته ثم وهو يلعب على الأرض مع كلبه ذي العجلات «سبوتي»، جلست وأمامها فنجان قهوة، وأخذت تدرس الإعلانات عن طلب مدبرات منازل أثار بعض منها اهتمامها فأحاطت اثنين منها بخط أحمر، وكان پول قد تعب من كلبه وأخذ يضرب على طبقه القديم بملعقة خشبية وهو يغني بصوت عال.

دق جرس الباب. ونظرت نيكولا إلى ساعتها. الخباز؟ حملت محفظتها وذهبت إلى الباب فلحقها پول.

فتحت الباب فإذا بوجهها يشحب وبقبضتها تشتد على مقبض الباب.

ونظر دومينيكو إلى الطفل خلفها، ثم قطب حاجبيه، وتمسك پول بأذيالها وهو يقول: «احمليني يا ماما... احمليني!».

فانحنت بحركة تلقائية، وحملته مطوقة إياه بذراعيها بتشنج.

لكنه أخذ يتململ وهو يضربها بخفة معنفاً، عابساً بشكل جعله يشبه قليلاً دومينيكو فارينز الواقف أمامه، وهو يقول: «لا تشدّي عليّ... لا تشدّي...».

مدّ دومينيكو يديه إليه ورفعه من بين ذراعيها بحزم، متجاهلاً صرخة

نيكولا المحتجة بمرارة. ابتعد به قليلاً يتفحصه، فأخذ الطفل يبادله التحديق دون وعي منه.

كانا متشابهين بشكل غريب.. رأت هذا الشبه رغم كرهها له. لا عجب أن دومينيكو بدا لها مألوفاً حين رأته للمرة الأولى فهو صورة عن ابنها، رغم أن پول صغير. إلا أن نعومة هذا الوجه الطفولي ستتغير يوماً ما إلى خشونة تماثل هذا القناع القوي المسيطر ألا وهو وجه دومينيكو.

ـ عينا پاولو وأنفه وفكه...

قال دومينيكو ذلك برقة، لكن الغضب كان يتفجر في كل حرف نطق به.

بقيت هي صامتة. وتقابلت عيناهما. رأته بمثل شحوبها... لكن شحوبه كان نتيجة غضبه الشديد.

مرت بهما امرأة تسكن في الطابق الأعلى ونظرت إليهما بفضول. فانتظر دومينيكو إلى أن غابت عن النظر، ثم قال: «هل علينا أن نتحدث عن هذا الأمر في الخارج هنا؟ ألن تسمحي لي بالدخول؟ لم يعد لديك سبب تمنعينني لأجله من دخول بيتك».

تراجعت نيكولا لتسمح له بالدخول. وحمل هو پول إلى غرفة الجلوس حيث جلس والطفل على ركبتيه وما يثير الغيظ هو أن الطفل وجد الرجل مثيراً للاهتمام... فالمعروف عن پول أنه يصرخ دوماً عند رؤية الغرباء وكان العديد من أصدقاء ڤانيسا يهربون وهم يرتجفون بعد مواجهة مع پول وكثيراً ما كانت ڤانيسا تتذمر بمرارة لعداوة پول لأصدقائها.

ولكن يبدو أن دومينيكو فارينز لقي حظوة في عيني پول. فقد انشغل الطفل بتفحص كل إنش من هذا القادم الجديد.

سمح دومينيكو للطفل بتفحصه بينما راح يتحدث إلى نيكولا بصوت هادىء كيلا يزعج پول.

- كم عمره؟

- سنتان!

فرفع حاجبيه الأسودين: «هذا يعني أنه ولد بعد وفاة پاولو؟».

فأومأت إيجاباً.

- ولم تجدي أن من المناسب إخبار أسرته بأنك حامل.

قال ذلك بازدراء، فأجابت: «لو اهتم أيٌّ من أسرته بحضور جنازته لرأوني حاملاً في شهري الثامن، فقد ولد پول بعد ذلك بشهر».

- پول؟

رق صوت دومينيكو وهو يلفظ الاسم، ورفع الطفل رأسه بابتسامة شاردة، ليعود على الفور إلى تأمل الساعة.

نظر إليها دومينيكو بحدة: «لا يحق لك إخفاء مولده عن أسرته».

قالت بمرارة: «لقد تجاهلوني، فلماذا أظنهم سيهتمون بابني؟».

- كنت تعلمين أن هذا يهمهم.

فضحكت بغضب: «فقط لأنه سيكون وسيلة لتحقيق طموحات أسرة فارينز! أتظن أنني أريد أن يكون ابني شريكاً في كل تلك المؤامرات السخيفة؟ لكي يستخدمه جده مخلباً لألاعيبه في سبيل المال؟».

- آه، أنت تكرهين المال إذن؟

- بل أكره الطريقة التي تجعلون بها المال يتحكم بحياتكم. ولا أريد ذلك لابني.

فقال دومينيكو بنعومة: «ليس لديك خيار».

سكتت لحظة خوفاً ثم عادت تقول بسرعة: «لن تكون لپول أي علاقة بأسرة فارينز. وسأكون حريصة على هذا. إنه انكليزي وقد ولد في هذه البلاد. إنه ابني وأنا الوصية القانونية عليه، ولن تستطيع أسرة فارينز أن تفعل شيئاً في هذا الشأن».

فهز دومينيكو كتفيه: «سنرى، سنوكّل أفضل المحامين، وپول، على كل حال هو ابن رجل ايطالي وهو الآن وريث لثروة طائلة، وأظن أن جده سيكافح لأجله، وأنا أعرف لورنزو. عندما يعلم بوجود فسيرغب في إحضاره إلى الڤيلا، لكي ينشأ رجلاً إيطالياً».

فقالت بإصرار: «بل هو إنكليزي».

اشتبكت عيناه بعينيها. أتراها رأت شفقة في عينيه ام تخيلت ذلك؟

- هل كان پاولو يقول هذا لو كان حياً؟

عصف بقلبها هذا السؤال، فحدقت إليه بوجه شاحب وعينين واسعتين. وبادلها هو التحديق بإمعان.

عندما تعرفت إلى پاولو للمرة الأولى، جذبها إليه مرحه الإيطالي، وما يشع في وجهه من ظرف ودفء. كان متلهفاً لتكوين أسرة، وتملكته السعادة حين علم بأنها حامل. تذكرت الآن كم مرة ومرة قال پاولو إنه سيأخذ طفله بعد ولادته إلى إيطاليا.

(حبيبتي... سنأخذه إلى الڤيلا لكي يرى آل فارينز، أجداده الذين تجسّدهم تماثيل من البرونز أصبحت خضراء لطول الزمن).

فكانت تغيظه مداعبة بقولها: «وماذا لو جاء المولود فتاةً؟».

فيضحك پاولو قائلاً بمكر: «سأعاقبك إذن بالضرب، ثم نحاول مرة أخرى. وسنستمتع بذلك أيضاً».

لكنها كانت تشعر من ابتسامته، أنه يرغب بالمولود ذكراً كان أم أنثى، فقد كان پاولو يعبد الأطفال. وهو بهذا يختلف عن الرجال الإنكليزيين فبينما الرجل الإنكليزي يتجاهل عربة طفل يصادفها في طريقه، كان پاولو ينظر إلى داخل العربة بلهفة مظهراً إعجابه بصخب ما يسر الأم ويذهلها.

أجفلت لسماعها صوت المفتاح في القفل، ونظر پول ثم صاح: «خالتي ڤان... خالتي ڤان!».

وقفت ڤانيسا، وقد تملكها الضعف والإرهاق عند العتبة. لكن سرعان ما تغيّرت ملامح وجهها عندما رأت ذلك الرجل الغريب مع أختها.

نهض دومينيكو باسماً وانتظر أن تعرفه نيكولا إليها.

ـ أختي ڤانيسا مايفيلد، وهذا دومينيكو فارينز.

أجفلت ڤانيسا، ثم بدا عليها الفضول، فابتسمت وهي تمدّ له يداً ناعمة طرية: «من أقارب پول؟ أختي ليست دقيقة أبداً في التفاصيل».

أمسك بيدها يرفعها إلى شفتيه يقبلها بخفة بشيء من الهزل.

ـ إنني ابن عم أبيه ليس أكثر. يبدو أن في أسرتك فتيات بالغات الجمال، يا آنسة مايفيلد. هل لديكم المزيد من الفتيات الجميلات؟.

فقالت هازلة بسرور: «لا. إننا النموذجان الوحيدان، ولكن نادني ڤانيسا، من فضلك».

وتمتم الطفل وهو يجذب ساق بنطلون دومينيكو مظهراً تملكه لصديقه الجديد.

ـ خالتي ڤان...

ضحك دومينيكو وعاد يحمله فلم ير الضيق على وجه ڤانيسا الجميل بسبب اللقب الذي يطلقه الطفل عليها فهي تكره تسميتها «ڤان»... حتى صغر سن پول لم يمنحه عذراً في اختصار اسمها بهذا الشكل الكريه.

عندما استقام دومينيكو واقفاً والطفل بين ذراعيه، عادت ڤانيسا إلى الابتسام.

ـ آه، يا حبيبتي نيكولا! لا أدري إن كان في الثلاجة سلطة، فأنا أكاد أموت جوعاً، لكنني مرهقة للغاية من العمل...

ومنحت أختها ابتسامة عذبة طويلة...

أومأت نيكولا باستسلام، ثم ذهبت تحضر وجبة خفيفة لأختها. ثم

أعدّت في الوقت نفسه إبريق قهوة، وعندما عادت إلى غرفة الجلوس، وجدت ڤانيسا متكئة إلى الخلف على وسائد الأريكة وقد انتشرت خصلات شعرها الشقراء كأشعة الشمس على الحرير الأخضر.

وكان پول جالساً بجانب الطاولة، يبني قصراً من القرميد مع دومينيكو فارينز، وسألتها أختها: «أين ستأكلين السلطة؟».

ـ آه، أنا متعبة لا أستطيع الحراك! سآكلها على صينية هنا، شكراً يا نيكولا.

قالت ڤانيسا ذلك وهي تميل برأسها باسمة فبدت بملامحها الرقيقة وبشرتها الشاحبة، أشبه بملاك لوحات الرسام بوتيشيلي.

ـ هل تريد قهوة، يا سيد فارينز؟

سألته نيكولا ذلك بصوت بارد إنما ليس عدائياً. لقد فكرت كثيراً وهي في المطبخ، وللمرة الأولى ابتدأت الشكوك تراودها بالنسبة إلى صحة قرارها بتربية پول دونما إطلاعه على إرثه الإيطالي.

كلام دومينيكو عن حب پاولو لوطنه دخل قلبها. لقد نسيت أشياء كثيرة بعد أن استحوذ عليها هاجس كره أسرته لها.

رفع دومينيكو عينيه إليها. كانت الشمس قد دخلت الغرفة، كاشفة عن لمعان نحاسي في شعرها الداكن، وفي عينيها الصافيتين الخضراوين اللتين يلمع فيها النفور، وابتسم ساخراً:

ـ شكراً، سأرحب تماماً بالقهوة، لأن قهوتك ممتازة.

لم تجد نيكولا أي عيب في كلماته تلك. وإنما لهجته هي التي وخزتها، فقد شعرت بشكل غامض أنه يسخر منها بطريقة مراوغة.

عندما عادت بالقهوة، وجدت ڤانيسا تستمع إليه باهتمام وهي ترفع اللقيمات إلى فمها بشكل متقطع. أكلت الخس والبندورة، لكنها تركت معظم اللحم الأحمر. فشهية ڤانيسا للحم ضعيفة، فهي نباتية في الواقع.

سكبت نيكولا القهوة وقدمت فنجاناً لكل منهما وعندما جلست على الكرسي قال لها دومينيكو ناظراً إلى ڤانيسا:

ـ كنت أخبر أختك عن سبب زيارتي.

فأجفلت نيكولا.

ـ آه؟

قالت هذا ونظرت ڤانيسا في عينيها مباشرة وهي تقول: «لم تكوني صادقة تماماً معنا، يا نيكولا، أليس كذلك؟».

هذا الاتهام خطف أنفاس نيكولا. ثم قالت ساخطة: «ما الذي تقولينه؟».

ـ لم تخبرينا قط بأن پول هو وريث أملاك فارينز! لقد جعلتنا نعتقد أن پاولو تركك مفلسة. وأسفنا جداً على پول... پول اليتيم المسكين! مع أنك تعلمين أن اسرة فارينز ستهب لمساعدتك في أي وقت، فلماذا جعلت پول يعيش في شقة هي أشبه بصندوق بينما بإمكانه العيش في بيت رائع في إيطاليا؟

ـ دوماً كنت أنا التي أنفق على نفسي. لم اقترض نقوداً قط منك أو من بيس.

قالت نيكولا هذا بغضب هادىء.

ـ لكننا عملنا حاضنات لطفلك مئات المرات دون أن تدفعي شيئاً.

ثم أضافت بسرعة: «هذا لا يعني أن النقود مهمة حقاً ولكن موقفنا كله نحوك كان مؤسساً على كذبة، فلم تخبرينا شيئاً عن خلفيات پاولو كنت دوماً كتومة، يا نيكولا».

قال دومينيكو: «هل شعرت بالخزي من أصله الإيطالي؟».

فردت بحدة: «بل هم الذين شعروا بالخزي مني. أنسيت ذلك؟ لقد أخبرهم پاولو بزواجنا، لكنهم تجاهلوني. أخبرتهم بوفاته، فتجاهلوني... فما الذي يجعلني أحاول ذلك مرة أخرى؟ إنني أعلم

متى أذعن للأمر».

فقفزت ڤانيسا لتقبلها، قائلة: «لقد جرحوا كرامتك، وآلموا مشاعرك... لكن دومينيكو جاء الآن لإصلاح الأمور، وإعطاء پول كل ما يحتاجه، إعطائه بيتاً وألعاباً ومدرسة جيدة، ومستقبلاً يفخر به».

دفعتها نيكولا عنها ببرودة: «لا شأن لك بهذا، يا ڤانيسا. إن پول ابني، وإذا أراد أقاربه رؤيته، فليأتوا إلى إنكلترا».

ونظرت ڤانيسا إلى دومينيكو مستغيثة.

ـ كيف يمكنك أن تكوني قاسية وظالمة إلى هذا الحد.

ثم تابعت تقول: «أظنّها فعلت ذلك لأنها اضطرت أن تقسّي قلبها لكي تعيش هي وپول، فلم يكن لديها خيار آخر بعد موت پاولو».

قال دومينيكو برقة: «لكن لديها خيار الآن. أريد منها أن تأتي معي إلى فلورنسا، إلى «الڤيلا» القائمة بين تلال توسكاني، المشرفة على كروم العنب والزيتون، لقد عاش آل فارينز هناك منذ مئات السنين، وپول هو الحفيد الأخير الذي ينحدر مباشرة من أمراء بيتنا التجار القدماء، ويجب أن ينشأ في بيت أجداده. وروح والده ترغب في هذا».

تنهدت ڤانيسا طويلاً: «آه! يا نيكولا كيف يمكنك أن ترفضي هذا؟ لا يمكنك أن تكوني قاسية القلب بهذا الشكل».

ألقت نيكولا عليها نظرة حافلة بالضيق، فركع دومينيكو هذه النظرة فابتسم ابتسامة عريضة وعيناه تلمعان هزلاً. ورفع پول نظره بفضول لهذا الصمت المفاجىء. وركع دومينيكو على الأرض بجانبه يبتسم له.

ـ پول، هل تريد أن تأتي وتقطف خوخاً ناضجاً من شجرتك الخاصة في الحديقة الكبيرة؟ هل تريد أن تلعب برش المياه في النافورة؟ وأن ترمي الحصى في الجدول من قمة برج عالٍ؟.

فاستدارت عينا پول: «نعم، الآن!».

ورفع ذراعيه لدومينيكو.

ـ خذني الآن.

قبله دومينيكو على أنفه: «ليس الآن، يا پول، ولكن قريباً جداً».

ونظر إلى نيكولا بعينين متحديتين. وبادلته هي النظر دون جواب وقد اختلطت المشاعر في نفسها. الرغبة في البقاء هنا، حيث أمان وطنها انكلترا المألوف لديها، ثم الشعور الجديد الذي عاد ينمو بعد أن كبتته طويلاً وهو أن پاولو كان سيرغب في أن ينشأ طفله في إيطاليا.

وأخيراً قالت بلجهة أقرب إلى التضرع: «أنا فقط أريد الأفضل لپول».

ـ سأحجز المقاعد في أول طائرة متجهة إلى إيطاليا.

قال دومينيكو ذلك وهو ينظر إلى ڤانيسا.

ـ وأنا واثق من أن أختك ستعالج أي مشكلة تتركينها خلفك.

* * *

٣ ـ اليد الحديدية

عندما ذهب، رمقت ڤانيسا نيكولا بنظرة فضولية طويلة.

ـ هل أنت مجنونة، يا حبيبتي؟ كيف ترفضين مثل تلك الثروة؟ ما كنت لأهتم لو أن لديك مستقبلاً تقدمينه لپول، لكنك فقيرة معدمة وستبقين كذلك على الدوام! فلماذا عندما تتزوجين من أحد أفراد أسرة غنية تخرجين عن الطريق الصواب فقط لكي تغيظيهم؟

ـ لقد نشأ پاولو في كل تلك الخلفيات الثرية الرائعة التي تتحدثين عنها، ومع ذلك هرب منها!

ـ أحقاً؟

وضحكت ڤانيسا وهي تهز رأسها.

ـ لقد أحضرها إلى هنا معه، يا نيكولا وأنت تعرفين ذلك... هذا إذا كنت صادقة لحظة واحدة!

فجمدت نيكولا وهي تحدق بها.

ـ ماذا تعنين بهذا؟

فهزت ڤانيسا كتفيها وقالت: «لطالما تميز پاولو بذلك السلوك الذي يمنحه المال دوماً... الغطرسة...».

قالت نيكولا بعنف: «لم يكن پاولو متغطرساً!».

ـ آه! كانت غطرسة بشكل مودة وغزل. وكذلك سلوك دومينيكو.

وألقت على أختها نظرة طويلة مفكرة.

www.elromancia.com

- لاحظت هذا، أليس كذلك؟

فاحمر وجه نيكولا.

- لم يكن پاولو مثل دومينيكو.

- دومينيكو أكثر تحفظاً... وأكثر تأثيراً نوعاً ما.. تحيط به هالة من السلطة رغم أنه يخفيها بالتهذيب. هل جميع الإيطاليين هكذا برأيك... اليد الحديدية في القفاز المخملي؟

ضحكت نيكولا وتذكرت پاولو وهو يراقبها بوجه منوسل عندما غاب عن البيت طوال النهار في سباق الخيل وكان قد أقسم ألاّ يعود إلى المقامرة مرة أخرى.

- لا تحكمي على المظاهر!

قالت ذلك بشيء من التعاسة إذ تخلّلت حياتها الزوجية القصيرة أحداث بسيطة أخرى جعلتها تضاعف الآن حذرها. لقد قالت في نفسها، حينذاك، كما تقول الآن، بأن تأثير ثرائه الضار هو الذي اضعف من متانة خُلق پاولو فكان أن قضى عليه في النهاية.

- يجب ألا يدلّل پول بذلك الشكل. بل يجب أن يتربّى تربية انكليزية رزينة. حتى الطفل الصغير يمكنه أن يتعلم الطاعة، والتهذيب، والبشاشة حين يأوي إلى فراشه بدلاً من أن يصرخ لينفّذ رغبته في السهر. فالساعات النظامية والهدوء والحزم الليّن، أمور هامة في التربية.

في اليوم التالي ذكرت نيكولا بعض هذه النقاط لرئيسها في العمل، درو، الذي زارته لتطلب نصيحته، فضحك بعجز: «مربية إنكليزية لإنقاذه؟ أليس كذلك؟ نيكولا، يالك من امرأة!».

- الأمر ليس مضحكاً. أريد أن يكون پول سعيداً، ويبدو أن للمال تأثيراً معاكساً.

- هذا وقف على الكمية والمصدر. أعني، من الواضح أننا كلنا

بحاجة إلى المال. علينا أن نأكل. أنت بحاجة إلى محام يا نيكولا.

فسألته بحيرة: «ولماذا؟».

- طلباً للنصيحة! يا عزيزتي، طلباً للنصيحة!

- لقد أخبرتك بأنني لا أريد مالاً من أسرة فارينز. سأسمح لپول بأن يزورهم لفترة قصيرة ثم أعيده إلى الوطن!.

- نيكولا... إذا كنت حكيمة، فعليك الاتصال بمحام لتعرفي منه الوضع القانوني. فإذا كانت هناك أي شكوك بالنسبة للوصاية على الطفل، فأزيليها قبل أن تذهبي إلى إيطاليا.

- وكيف يمكن أن تكون هناك شكوك؟ فقد ولد هنا.

- لكنه من أب أيطالي!

- لكن أباه ميت، وأنا الوصية عليه الآن.

- نعم، هذا في القانون الإنكليزي، لو كنت مكانك لراجعت القانون الإيطالي.

فحدقت إليه بحذر: «أنت محق، نعم سأفعل هذا، يا درو!».

وزارت محامياً على الفور، فأصغى إلى قصتها باهتمام.

- حسناً، طبعاً، ليس هناك غموض بالنسبة إلى القانون الإنكليزي، وربما الأمر نفسه في القانون الإيطالي، أيضاً، ولكن ربما هنالك وثيقة قانونية بالنسبة إلى الإرث.

- وهل تقيدني الوثيقة أنا أيضاً؟

- إذا كان زوجك قد وقع عليها، جاعلاً إياه وصياً على حقوقه في الارث... مثلاً، فقد يشكّل ذلك خطراً عليك.

فشحب وجهها: «وماذا يعني هذا؟».

فهز المحامي كتفيه.

- لا أستطيع القول ما دمت لا أعلم إن كان هناك وثيقة ما، وهذا محتمل. إن كان الميراث عبارة عن مزارع واسعة فلا شك أنهم يريدون

حماية المزارع ووضعها تحت السيطرة اثناء غياب الوريث.

- كما حدث بالضبط.

وتملكها هاجس مفاجيء بأن هذا أكثر من مجرد احتمال، فقد كان دومينيكو بالغ الإصرار، وبالغ الثقة بنفسه.

- هل يمكنني حماية نفسي ضد ذلك؟

- نعم، أثناء وجودك على الأرض الإنكليزية طبعاً، وصايتك على الطفل بالغة الأهمية ما دمت أمه، وما من محكمة توافق على الفصل بينكما لأجل دوافع مالية.

- ولكن إذا أخذوه إلى إيطاليا؟

- دون موافقتك؟ يمكننا عند ذلك رفع القضية أمام المحاكم الإيطالية.

- إذا أنا أخذته إلى هناك بنفسي، فهل يمكنهم هناك أن يأخذوه مني؟

- أنا واثق من عدم تمكنهم من ذلك. ولكن بإمكاني التأكد من هذا إذا شئت. سأطلب رزية أي وثيقة ترتبط بالوصابة على الصبي قبل أن توافقي على السفر إلى إيطاليا.

- هل لك أن تفعل هذا؟

وأعطته رقم هاتف دومينيكو في فندقه في لندن، فاتصل به على الفور وأخذ موعداً لرؤيته.

جاء دومينيكو مرة أخرى لزيارة پول، وعندما أدخلته نيكولا إلى الشقة، رمقها بنظرة حادة.

- لقد رأيت محاميك لتوّي. أراك مخلوقة شديدة الثقة بنفسها، أليس كذلك؟

فاحمر وجهها وأجابت: «أنا لا أثق بك ولا بأسرتك».

فلوى شفتيه ساخراً: «بالرغم من كل كلامك الجريء، هناك

موضوع ثروة آل فارينز التي رحت تتحرّين عنها».

فالتهبت عيناها.

- لقد عنيت كل كلمة عندما قلت إن المال لا يعني لي شيئاً! فأنا لن ألمس قرشاً من أموال آل فارينز، لأن بإمكاني أن اكتسب ما يكفيني، خصوصاً هذه الأيام التي يصعب فيها العثور على طهاة ماهرين.

- يا لها من محاضرة طويلة! يبدو لي أن السيدات يحببن الاحتجاج كثيراً!

أخذ پول ينقل نظراته بينهما باستياء. لم يكن يحب الأصوات المرتفعة والملامح الغاضبة فهو، كمعظم الأطفال، حساس للجوّ حوله، فأخذ الآن يشدّ تنورة نيكولا، هاتفاً: «ماما... ماما...».

فنظرت إليه، وعندما رأت عبوسه القلق، انحنت عليه تأخذه بين ذراعيها، مرغمة نفسها على القول بابتسامة مشرقة: «سأحضر القهوة لزائرنا. هل أفعل هذا يا پول؟ وحليباً بارداً لك».

أخذ پول يبتسم بارتياح ومد يديه إلى دومينيكو: «عمي... احملني يا عمي!».

رفعه دومينيكو على كتفيه، فتمسك پول بشعره يضحك بسرور.

وعندما أعدّت نيكولا القهوة، نظرت إلى الإثنين وهي تفكر في أن الأمر كان سيحدث بهذا الشكل فلو أن پاولو على قيد الحياة لأصبح أباً شغوفاً للغاية.

لمح دومينيكو عبوس الألم في وجهها، فأساء الفهم. أعطى پول الطبق والملعقة ليلعب في الزاوية، ثم قال لها بحدة: «عدم رغبتك في رؤيتي مع الطفل لأمر سيء جداً... عليك أن تعتادي هذا. وأنا أنوي أن أراه كثيراً من الآن فصاعداً. فأنا أقرب ما يكون إلى عم له».

- لم أكن أفكر فيك. بل في...

وتهدج صوتها وأشاحت بوجهها.

www.elromancia.com

أمسك بكتفيها بديرها إليه، غارزاً أصابعه في بشرتها. فوقفت محنية الرأس، والدموع تحترق في عينيها دون أن تنهمر.

رفع ذقنها بخشونة ليرى وجهها بوضوح: «أتراك أقسمت يميناً على الترمل الأبدي؟».

بدا صوته ساخراً بقسوة، فنظرت إليه بنفور.

- لا أتوقع منك أن تفهم!

- جربيني! فأنا قادر على تفهم المشاعر.

- باولو والده... الوالد الذي لم يره قط!

وانهمرت دموعها الآن، معبرة عما شعرت به.. وخز الملح عينيها، وبشرتها وشفتيها. وشعرت بألم مبرّح ثم أعقبه شعور غريب بالارتياح.

رفع يده مرة أخرى بمنديل مسح به وجهها بحزم، وكأنها طفلة، فشعرت بالضعف، وكادت غريزتها تدفعها فجأة إلى الميل عليه والتمسك به. وخرجت أنفاسها ممزقة، وتسارعت خفقات قلبها.

رفعت عينيها ببطء تنظر إليه من خلال أهدابها، فرأت عينيه الرماديتين مسمّرتين على وجهها، وقد جعل الغضب الهادىء وجهه قاسياً. كان مقطب الحاجبين، متوتر الشفتين، وقال ببرودة الثلج:

- لن أكون بديلاً لباولو.

شهقت، ورفعت يدها تصفعه على خده فأمسك بمعصمها يغرز فيه أصابعه بحقد وهو يخفض يدها بعنف إلى جانبها: «نسيت الطفل، وعندما تشعرين مرة أخرى بالحاجة إلى رجل، فابحثي عن غيري».

ولمعت عيناه بغضب.

- عن رجل أعمى لا يدرك أنك تبحثين فقط عن محاكاة باهتة لما كان بينك وبين زوجك. ما من رجل يرضى الزواج بفتاة هاجسها الأوحد رجل ميت، أو يسمح لنفسه بأن يتشارك قلبها مع رجل آخر.

- أنت... أنت...

وتلعثمت نيكولا بعجز في غمرة غضبها ومرارة ما شعرت به من إذلال. حقيقة أن جزءاً مما قاله كان مؤلماً في صحته، زاد من حدّة غضبها ففي لحظات من الضعف، كادت تنفصل عن حسها بالواقع وتوحي لنفسها بأن هذا الغريب الأسود الشعر الذي يشبه باولو، هو حقاً زوجها. وكانت تلك حماقة بالغة، ولم تستطع أن تفهم ما الذي جعلها تتصرف بهذا الشكل المحط لكرامتها.

أعدّت القهوة بصمت وسكبت له كوباً.

ثم ذهبت إلى غرفتها تاركة إياه بمفرده يلعب مع پول. وفي غرفتها أخذت تنظر إلى نفسها في المرآة، فرأت شعرها مسدلاً حول وجهها الشاحب وآثار الدموع على جفنيها ووجنتيها، والاحمرار حول عينيها.

تأوهت. ما الذي جعلها تتصرف بذلك الشكل؟ ذلك الشكل الحقير؟

لن تستطيع أن تنسى ذلك أبداً، ولا أن تصفح عن دومينيكو لسرعته في فهم مشاعرها. إنه أمهر مما يجب، وأكثر إدراكاً.

إنه رجل خطر... كيف يمكنها احتمال رؤيته، وهي تشعر بأنه يقرأ أفكارها بسهولة؟

واستلقت على سريرها مغطية وجهها، يا لها من مذلة أن يشعر الشخص بأنه شفاف للآخرين!

دهشت لعودة ڤانيسا باكراً، قائلة إنها تشعر بصداع خفيف وإنها تريد هواء تتنشقه فالصالة التي تعمل فيها خانقة الجوّ.

- هل مانعت «مدام آنيت» خروجك مبكرة؟

سألتها نيكولا هذا منزعجة. فقد عادت ڤانيسا مبكرة هذا الأسبوع ثلاث مرات.

أصغى دومينيكو الذي كان متكئاً على الأريكة وقد تصالبت ساقاه أمامه وحدق ساخراً إلى ڤانيسا وهي تهز رأسها، وقد احمرت وجنتاها

قليلاً.

قالت نيكولا: «سأعدّ لك سلطة للغداء».

وسألها دومينيكو بمرح: «لِمَ لا ترافقينني للغداء في مكان ما؟».

جمدت نيكولا في مكانها وهي تنقل نظراتها بينهما، أما ڤانيسا فأجفلت قليلاً مظهرة الدهشة بشكل فاتن. ثم ضحكت وعضت إصبعها الصغير متظاهرة بالتفكير في هذا الاقتراح.

ـ هذا لطف كبير منك.. أنا لا آكل سوى القليل!

وطرفت له بأهدابها ووجهها مليء بالرقة والجمال.

ـ سآكل عن كلينا.

فضحكت بهدوء: «حسناً، شكراً لك إذن يا دومينيكو. يسرني جداً تناول الغداء معك».

سارت نيكولا فجأة إلى المطبخ وقد خطر لها فجأة أن هذا ما كانت ڤانيسا تسعى إليه، وهو سبب عودتها إلى البيت باكراً منذ بدأ دومينيكو بالحضور إلى الشقة لرؤية پول.

ما أشد غبائي! إذ كيف لي ألا أدرك قبل الآن أن ڤانيسا مهتمة به، ولكن، هل هو أيضاً مهتم بها؟ هو ليس بالرجل الذي يمكن فهمه بسهولة. وتصرفه الهادىء ذلك يخفي الكثير.

بدأت تعد سلطة لغدائها هي. وكان پول قد تناول غداءه قبل أن يأخذ قيلولة بعد الظهر، والتفتت لصوت سمعته خلفها. كان دومينيكو مستنداً على الباب. وبادلها نظرتها الباردة:

ـ بالنسبة إلى حديثنا السابق.. لقد جعلت محاميك يتصل بمحامينا في لندن فهما سيحلاّن القضية فيما بينهما. لقد وافقت أنا على أن تُبرم اتفاقية تنص على أنك الوصية على پول، وأننا، أنا ولورنزو الجد، لن نطلب الوصاية لنا بأي شكل كان طالما أنت حية. سيجعلان من هذا سنداً نوقعه أنا وأنت.

ـ ولورنزو فارينز؟

ـ سيوقعه طبعاً.

ـ هل اتصلت به؟ هل يعلم...

ـ عن پول؟ نعم. لقد تحدثت معه هاتفياً. كان...

وتهدج صوته فجأة. ثم هز كتفيه بشكل غير عادي... وبعد لحظة عاد يقول: «لقد ظن لورنزو أنه أصبح بلا ذرية. فقد مات ولداه دون أن ينجبا، وأن يسمع فجأة أن لديه حفيداً...».

رأته يناضل لكي يخفي المشاعر من وجهه وصوته. أتراه لا يثق بالمشاعر؟ أو يخاف منها؟

ـ أرجو أن يفهم أن پول لن يبقى في إيطاليا إلى الأبد.

ـ لم أتعهد له بأكثر من أنه سيزور جده. وهذا كل شيء.

رمقها بنظرة فولاذية، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ساخرة.

ـ سنحل هذه القضية حين نصل إليها. ولندع الرجل العجوز يسعد فترة. خوفي الأكبر هو أن تنتابه نوبة قلبية بعد معرفته بهذا الخبر المفاجىء.

فقالت بفظاظة: «الفرح لا يقتل أحداً».

فردّ بحدة ونظرة ساخرة هازئة على وجهه: «أنت غريبة عن الفرح، باختبائك في ظلال الحياة، وتحويل وجهك عن الشمس. كيف يمكنك أن تعرفي شيئاً عن الفرح؟ لو لم تكوني أماً، لأصبحت راهبة دون شك.

ازداد اقتراباً منها يحدق إليها.

ـ ترى هل تسري دماء في عروقك أيتها المخلوقة الباردة أم أنك متجمدة إلى الأبد داخل ثلج عينيك الأخضر هاتين؟

صوت وقع كعبي ڤانيسا في الممر جعلها تقفز مبتعدة عنه. كانت أشبه بالمنوّمة مغناطيسيا بذلك الصوت الإيطالي الرقيق... وكان يتكلم بالإيطالية، وأدركت فجأة أنه يتكلم بالإيطالية كلما تحدث بشكل خاص

حميم. أترى ذلك لأنها لغة قلبه؟ إنها، نفسها، تتحدث الإيطالية بطلاقة. فقد تعلمتها في المدرسة. لُغتها الإيطالية هي التي أدخلتها إلى حياة باولو. كان باولو يقيم في الفندق الذي كانت تعمل فيه أثناء آخر عطلة لها في الكلية، فزاولت عملاً صيفياً مؤقتاً بانتظار نتيجة امتحانها النهائي. ولأنها تحسن اللغة الإيطالية، اختارها المشرف على الفندق مترجمة في الأحوال الطارئة.

وذات يوم، اندلق إناء حساء على بذلة باولو الجديدة في غرفة الطعام، فانفجر يطلق الشتائم باللغة الإيطالية.

وإذ تملك رئيس الخدم الارتباك والذعر، أرسل يستدعي نيكولا من المطبخ. وبسبب هدوئها وجمالها، وابتسامتها، هدّأت من غضب باولو الذي لم يصعب عليه أن يهدأ وأمامه هذه الفتاة الجميلة الشابة التي تتكلم لغته.

تناولت معه العشاء في عطلتها الليلية لمدّة أسبوع، كما تمشّت معه في الصباح، وكتب لها رسائل تضطرم بالشوق واللهفة والحماسة. . كان غزلهما مفاجئاً محموماً بدّد كل شيء آخر في رأسيهما.

أرسل باولو برقية إلى بيته يخبرهم بأنه سيتزوجها وانتظر الجواب، ولكن كل ما وصلهما هو ملحوظة مختصرة باردة بألاّ يعود بها إلى فلورنسا على الإطلاق، لأن الأسرة لن تصفح عنه أبداً.

قال باولو بمرارة: «أبي لم يكتب إليّ بنفسه حتى. فهذا ليس خطه».

فتمتمت نيكولا بتعاسة: «ربما علينا أن ننتظر. . لا أريد أن أفصل بينك وبين أسرتك يا حبيبي».

وكان أن أخذها باولو بين ذراعيه، قائلاً: «أنت الآن كل أسرتي، يا حبيبتي. . .».

وعصر ذلك اليوم، أقنعها بأن تترك وظيفتها. وحصل باولو على

وثيقة خاصة تمكنا بها من الزواج في أقرب وقت دون أن تجد وقتاً لتفكر في ما هي مقدمة عليه. كلاهما راشد لذا لا سبب يجعلهما ينتظران. هذا ما قاله لها باولو يستحثها، فتبعته وقد أعماها الحب.

* * *

جلست تنظر من النافذة، غارقة في الذكريات، وقد نسيت دومينيكو تماماً.

اقتربت ڤانيسا منه، ووضعت يدها تحت مرفقه ونظرت إليه بدهشة عندما لم يتحرك.

كان يراقب نيكولا بعينين باردتين جعلتا ڤانيسا تحذر منه. فوجهه الأسمر كالخشب المنحوت، والفم والفك المتوتران، والأسنان المطبقة، كلها كانت تنبىء بغضب مكبوب.

تملكت الحيرة ڤانيسا. ما الذي حدث؟ وسعلت، فأجفل، ورأته يطرف بجفنيه وهو يستدير ببطء، مستجمعاً شتات نفسه، ثم ابتسم لها.

ـ تبدين فاتنة، يا فتاتي العزيزة! أشبه بنسمة في الربيع، أنت «بريما ڤيرا» حقيقية.

فنظرت إليه بارتباك: «أنا ماذا؟».

ـ ألا تعرفين لوحات الرسام «بوتيشيلي»؟ الذي رسم «عودة الروح» التي تمثل فتيات يرقصن في غابة. . . وفي مقدمة الصورة فتاة مثلك، نحيفة رشيقة، ثوبها مغطى بالأزهار وشعرها الذهبي أيضاً! لا بد أنك رأيت في مكان ما، تلك اللوحه، فهي من أشهر اللوحات في العالم.

تكلم بصوت رخيم وحماسة إيطالية، لكن ڤانيسا لاحظت بحذر أن عينيه تراقبان أختها من فوق رأسها هي.

أتراه يهتم بنيكولا؟ أخذت تفكر في ذلك بهدوء. ولكن إن كان معجباً بأختها، فلماذا ينظر إليها بتلك البرودة؟ أتراهما تشاجرا لتوهما؟

نعم، لا بد أن هذا ما حدث، فكلما رأتهما معاً، تشعر بأن بينهما جواً ثقيلاً غير عادي... لم ينسجما بعد.. هذا كل ما في الأمر.

وأخذت تفكر... ربما ليست نيكولا في مستواها هي من الجمال، ولكنها تتميز بشيء ما... ولم تعرف ڤانيسا بالضبط ما لدى أختها... كل ما تعرفه هو أنه، أحياناً، فعّال وذو تأثير بالغ، وقد حدث أن تحوّل بعض أصدقائها من الشبان، في الماضي، إلى نيكولا... ودون أن ترفع نيكولا، كما يبدو، إصبعاً في سبيل تحقيق ذلك.

ولكن الآن الأمر مختلف، هذا ما راحت تفكر فيه وهي تغادر الشقة مع دومينكو، هذا الرجل مختلف، فأنا لم أعد شابة صغيرة ولم يبق لي في مهنتي هذه سوى سنوات قليلة.

ـ ما هو عملك بالضبط؟

سألته هذا باسمة، مخففة بذلك من خشونة الكلمات. فأجاب بشيء من الدهشة.

ـ أزاول عمل الأسرة طبعاً.

قطبت جبينها: «وما هو عمل الأسرة؟».

ـ ألم يتحدث پاولو عن هذا قط؟

ـ لقد تحدث عن إيطاليا، لكنه لم يتحدث عن أسرته قط.

ـ فهمت.

قال ذلك وقد توتر وجهه، فقالت برقة: «لا تتألم لذلك. كان پاولو يعلم أن نيكولا تكره أن تسمعه يتحدث عن أسرته. فقد كانت تشعر بالذنب لأنه تخلى عن أسرته ووطنه لأجلها».

نظر إليها بحدة: «أتظنين ذلك؟».

ضحكت بنعومة: «بل واثقة منه، فأنا أعرف نيكولا. عرفتها طوال حياتي على كل حال.. كانت تحب پاولو كثيراً.. وترى الشمس تشرق منه. وعندما قُتل، بقيت شهوراً أشبه بالشبح ولولا پول، لماتت بعده».

ـ لكن پاولو مات منذ سنتين... بل أكثر.

ـ نعم، إنها وفية إلى حد محيّر، أليس كذلك؟ لا أظنني مخلصة كنيكولا.

ـ أتعتقدين أنها ما زالت تحب پاولو؟

ـ لم تنظر إلى رجل آخر منذ موته.

أومأ ببطء: «لقد دفنت نفسها مع الميت... كما ظننت أنا. آسف لسماعك تؤكدين ظني».

نظرت إليه بحذر: «آسف؟».

اتسعت عيناه: «نعم... ليس من سلامة العقل أن تحصر فتاة صغيرة أفكارها في رجل مات منذ أكثر من سنتين».

* * *

جلست ڤانيسا على السجادة في غرفة الجلوس تلك الليلة، تسّرح شعرها وقد استقرت عيناها على أختها. وكانت بيس تخيط سترة صغيرة أنيقة لپول، فهي تحب تصميم ملابس الأطفال.

سألت ڤانيسا شقيقتها: «هل تعرفين الكثير عن أسرة فارينز، يا نيكولا؟».

أجابتها أختها دون اكتراث: «أعرف القليل جداً».

ـ إنهم أثرياء جداً.

نظرت نيكولا إليها صامتة. فاحمر وجه ڤانيسا قليلاً: «حسناً، لماذا لم تخبرينا بذلك؟ وما الذي لم تخبرينا به أيضاً؟ لم تذكري أنهم يصدرون منتجاتهم؟ وأن دومينيكو يتولى التصدير إلى هذه البلاد؟ وأن هذا كان ما يعمله پاولو هنا في البداية قبل أن ينبذ عمله مع أسرته لكي يتخذ ذلك العمل الفظيع، الترجمة؟».

ـ يبدو أنك كنت مشغولة باستخلاص كل تلك المعلومات.

ـ لماذا تخلى پاولو عن عمله؟ ألانه كره معاملة أسرته له بتجاهلهم

www.elromancia.com

زواجكما؟

وابتسمت بشكل غير سار.

- أم كان هناك سبب آخر.

نظرت نيكولا إلى أختها بضيق ونفور.

- لماذا تستمرين في الحديث عن هذا الموضوع؟ تحدثي في موضوع آخر.

- هل لأن پاولو لم يستطع أن يختلس أموال الشركة لكي يقامر بها؟

تجمدت نيكولا مكانها وحملقت في أختها وصاحت بها: «ماذا؟ هل هذا ما أخبرك به دمينيكو فارينز؟».

ووضعت بيس عملها من يدها ونظرت إليها بقلق.

- كفى يا ڤانيسا، إنك تكدرين نيكولا، لا تصغي إلى ذلك الكلام الفارغ يا نيكولا، فڤانيسا تحاول فقط إغاظتك.

- أنا فقط أحاول أن أزيح بعض السُتُر التي أسدلتها حول تمثال پاولو. لقد حان الوقت لكي تعترف نيكولا لنفسها بالحقيقة.. لم يكن پاولو ملاكاً. كان يقامر ويكذب وقتل نفسه أخيراً حين قاد سيارته الرياضية في الاتجاه المعاكس للسير وكاد بذلك يقتل عدة أشخاص في الوقت نفسه. ولو لم يتمكن سائق السيارة الأخرى من تلافي الصدام لكان الآن إلى جانب قبره، قبور أخرى.

قفزت بيس واقفة عندما هربت نيكولا من الغرفة.

- بالله عليك، يا ڤانيسا. أحياناً أظنك تكرهين أختك! لماذا أخذت تتحدثين عن كل هذا الآن؟

- لقد تعبت حقاً من القديس پاولو وأعماله الطيبة. أمام نيكولا فرصة لتحيا حياة كريمة لو أخرجت نفسها من هذا. بإمكانها أن تصبح إحدى أغنى نساء إيطاليا، فتعيش في قصر أسطوري وتلبس مجوهرات أسرة فارينز.

تألقت نظرات ڤانيسا وهي تلهث:

- ما الذي يجعل نيكولا حمقاء بهذا الشكل؟

فنظرت بيس إليها بازدراء.

- في الحقيقة أنت تتساءلين لماذا لم يحالفك أنت مثل هذا الحظ، اليس كذلك يا ڤان؟

- لا تسميني «ڤان». وبعد، لماذا عليّ ألاّ أرغب في حياة جيدة؟ لقد حدثني دومينيكو الليلة أنه يحق لنيكولا، بصفتها أرملة پاولو فارينز، أن تلبس عقداً من الزمرد حجارته بحجم طوابع البريد. ويحيط بها الماس.

وعضت ڤانيسا إبهامها بعجز.

- لكن نيكولا لا تهتم بكل ذلك.

وناحت بيأس.

- لا تهتم مثقال ذرة!

- وهكذا، لكي تقنعيها بقبول ما على أسرة فارينز أن تقدّم لها، جلست لتدمّري ذكرياتها عن زوجها؟

- على نيكولا أن تغيّر موقفها. يجب أن تدرك أن من السخافة أن تلوم آل فارينز، وأن اللوم يقع على پاولو بالمقدار نفسه، لا يجدر بها أن تعاديهم، بل أن تنسى پاولو.

سألتها بيس بذعر فجائي: «أنت لا تفكرين في الذهاب إلى إيطاليا أنت أيضاً، أليس كذلك؟».

فنظرت ڤانيسا إليها بتمرد: «لِمَ لا؟ ستحتاج نيكولا إلى سند معنوي هناك».

- سند معنوي؟ أنت تمزحين طبعاً.

- اسخري مني قدر ما تشائين، لكن دومينيكو قال لي إنهم سيرحبون بي كثيراً في «قصر فارينز» ففي النهاية أنا قريبة نيكولا الوحيدة

الحية، والمفروض أن أتعرف إلى أسرتها الجديدة. عليهم أن يروا خليفتها، وبهذا ينسون كل ذلك الهراء عن كونها طاهية.

ـ لكنها طاهية، وطاهية ممتازة للغاية.

قالت بيس هذا ببراءة ساخرة.

نظرت ڤانيسا إليها بضيق: «نعم، هذا صحيح، لكن تلك ليست مهنة بل نوعاً من الهواية».

فقالت بيس تغيظها مداعبة: «دعك من هذا، يا «ڤان»، فهم لن يبتلعوا هذا الكلام، ونيكولا لن تسمح لك أبداً أن تتحدثي عنها كذباً، فكبرياؤها ستخنقها».

فقالت ڤانيسا بحدة: «كبرياء نيكولا تشعرني بالغثيان.. عليها أن تجري لدماغها عملية جراحية. إنها مجنونة تماماً ولو كنت مكانها...».

فقاطعتها بيس ساخرة: «كلنا نعلم ما كنت لتفعليه مكانها.. تخططين لكل شيء ونهربين من أقرب مخرج».

قالت ڤانيسا باستياء: «أنا لست مادية إلى هذا الحد. كل ما أشعر به هو أن على نيكولا أن تقبل ما هو حقها».

ـ وأنت ستذهبين معها لكي تقنعيها بقبول ذلك حتى لو لويت ذراعها لتحمليها على الرضا؟

بدا التصميم العابس على وجه ڤانيسا الجميل. لو رآها أحد من المعجبين بها في مزاجها هذا لفوجيء برؤية ذلك التشبث والقوة تحت ملامحها الأنثوية الرقيقة تلك.

وتمتمت تقريباً في سرّها: «سأذهب معها إلى إيطاليا، ولا شيء سيقف في طريقي».

* * *

٤ ـ أسد فارينز

تقيأ پول في السيارة التي نقلته من المطار إلى فلورنسا.. لقد سبّب السفر بالطائرة الاضطراب لمعدته، لكن رحلة السيارة الطويلة زادت من ذلك، وعندما وصلوا إلى تلال توسكانا الخضراء، كان ينشج باكياً وقد شحب وجهه.

ـ أبعديه عني.

قالت ڤانيسا ذلك، ساحبة تنورتها الأنيقة البيضاء من جواره.

ودهشت نيكولا وهي ترى دومينيكو رقيقاً كفؤاً، فقد أمسك بالطفل بهدوء، ونظف مقعد السيارة، وتقبّل تلوث بنطلونه بروح فلسفية.

وعندما حاولت نيكولا أن تعتذر، قال بعدم اهتمام:

ـ انسي هذا! لم يستطع منع ذلك.

فقالت بأسف: «يجب أن ترسل بذلتك للتنظيف ثم ترسل إليّ الفاتورة».

ضاقت عيناه وقال بلهجة هي أشبه بصفعة لها: «قلت لك أن تنسي هذا».

احمر وجهها وسكتت. وكان في انتظارهم في المطار سائق خاص يرتدي بزّة رسمية. جعلها تهذيبه الرسمي تشعر بنفسها وكأنها دجالة بسبب بذلتها البسيطة الصفراء اللون.. لقد تبعته إلى السيارة وپول بين ذراعيها، بينما جلس دومينيكو في المقعد الخلفي مع پول، فتضرعت

www.elromancia.com

ڤانيسا لكي تجلس هناك هي أيضاً، مدعية أن أعصابها تتوتر دوماً من حركة السير كلما جلست في المقعد الأمامي، فبادرتها نيكولا بابتسامة هازلة، وقد رأت من خلال هذا محاولة قليلة الذوق منها للفصل بينهما.

كان ذهنها مشغولاً للغاية بما سيحدث، وبلقائها الأول مع لورنزو وبقية أفراد أسرة فارينز.

حاولت أن تتذكر كل ما قاله پاولو عنهم، لكنه في الواقع لم يقل الكثير، وما أخبرها به كان مجرد أشياء تافهة.

توفيت أمه منذ سنوات، لكن والده لم يتزوج مرة أخرى، فقد تزوج في سن متأخرة، وكان رجلاً تصعب عليه العلاقات الشخصية. ولورنزو رجل عجوز الآن، أضعفه المرض، ومع ذلك لا يزال يتحلّى بالحيوية نفسها التي وصفه پاولو بها.

سألت ڤانيسا دومينيكو: «من سنقابل بجانب عمك؟».

فأجاب: «أمي! إن أبي ميت، وأمي تسكن في الڤيلا، ثم هناك ابنة عمي «بيانكا» وهي تسكن في الڤيلا أيضاً».

قالت ڤانيسا: «وهل الأسرة كلها في الڤيلا؟».

قالت هذا ضاحكة ثم تابعت وقد ضاقت عيناها.

- وماذا تفعل بيانكا؟

- إنها تساعد في إدارة المنزل، كما تقوم بأعمال السكرتارية للورنزو، إنها ابنة عم بعيدة النسب في الواقع، ويعيش والداها في البرازيل، لكنها تخلت عن السفر معهما لتعود إلى إيطاليا وتعمل مع لورنزو.

- هل هي وحيدة والديها؟

فهز رأسه وقد تصلّب وجهه: «لديها أخ».

نظرت ڤانيسا إليه بفضول: «إنك تقول ذلك بلهجة تنذر بالسوء».

قال متوتراً: «ليو شخص شرس عاطل عن العمل».

فقالت ضاحكة: «لا تخبرني إنه يعيش في الڤيلا، هو أيضاً».

- تصرف لورنزو بحماقة عندما سمح له بأن يسكن في برج المراقبة القديم، و«ليو» يدعي بأنه يرسم هناك.

- يدعي؟

سألته ڤانيسا رافعة حاجبيها، فأجاب بحدة: «ليس فناناً أكثر مني».

تمتمت نيكولا حالمة: «يا لها من لوحة لأسرة سعيدة!».

كان دومينيكو مستنداً إلى الخلف في مقعده، وعيناه خلف رأسها ذي الشعر الأسود اللامع. نظرت في مرآة القيادة فوقها فالتقت عيونهما، كانت عيناه طبقتين فولاذيتين، بينما عيناها واسعتين بريئتين بشوبهما ازدراء خفي.

- لا شك أنك ستفضلين سماع حديث «ليو» عن نفسه. إنه يرى نفسه «مايكل انجلو» الثاني. ولكن حذار يا نيكولا فهو يطالب عباده بتقديم التقدير له في مزاره. إن أعداداً ضخمة من الفتيات الجميلات يركعن عند قدميه، لأن «ليو» يتوقع منهن إعجاباً دون حدود.

فضحكت ڤانيسا: «سيخيب أمله بالنسبة إلى نيكولا. فهي ليست سريعة التأثر».

- لا؟

ومرة أخرى بحثت العينان الرماديتان عن عيني نيكولا في المرآة.

- عجباً! حتى الحزن له نهاية.

أشاحت نيكولا بوجهها مسدلة جفنيها على عينيها الخضراوين، ثم أخذت تحدق إلى الطريق أمامها فهذا الطريق الذي تحيط به أشجار السرو وبساتين الزيتون، كان أشبه بخلفية إحدى اللوحات الإيطالية أحياها سحر ساحر.

ثم أخذوا يصعدون تلة شاهقة بين جدران قديمة مفتتة على طريق ضيقة مهجورة، وقد تركوا ضجيج السير خلفهم بمراحل ولم يبق سوى

www.elromancia.com

سيارتهم في الطريق، إلى أن وصلوا إلى عربة يقودها حمار منهك يسير أمامهم بتثاقل. وضحك لهم السائق الذي كان يرتدي بنطلون جينز وقميصاً أزرق، وأفسح لهم الطريق.

بعد مسافة قصيرة وصلوا إلى بوابة واسعة، قام على جانبيها أسدان قد نهضا على قوائمهما الخلفية ورفعا مخالبهما مزمجرين يحميان شعار الأسرة النبيلة المنحوت في الحجر والقائم على عتبة البوابة العليا.

ـ أسد فارينز.

قال دومينيكو هذا لپول بابتسامة سريعة وهو يشير إلى الأسدين.

وجلبت نظرة پول نظرة تعنيف من دومينيكو إلى نيكولا.

ـ ألم تخبريه عن «أسد فارينز»؟

سألها دومينيكو هذا بصوت عميق رزين، فهزت كتفيها: «أخبره عن ماذا؟».

ـ ألم يذكر پاولو ذلك قط؟

فأخذت تتذكر.

ـ لست واثقة...

لم يكن لديهما، في الحقيقة، متّسع من الوقت... فقد كان هناك اشياء كثيرة ليتحدثا عنها. ونظرت إلى دومينيكو متحدية.

ـ كان لدينا، أنا وپاولو، أشياء أفضل من التحدث عن تاريخ أسرته طوال اليوم.

فقطب حاجبيه الأسودين، وبدت في عينيه نظرة قاسية، وتوتر فمه الحازم. نظر إلى پول وقال له:

ـ كان أول رجل من أسرة فارينز تاجراً. وذلك منذ مئات السنين، سافر إلى الشرق الأقصى. وأعطاه ملك تلك البلاد شبل أسد هدية، وعندما عاد إلى إيطاليا جاء الشبل معه، فكان يتبعه إلى كل مكان، وكان يحرسه عندما يذهب إلى الصيد. وعندما كان عدو ما يحاول أن يقتله،

كان الأسد يقفز ليساعده ويطرد العدو وبقي الأسد سنوات يذهب معه إلى كل مكان، وذات يوم ذهب وحده إلى مأدبة. فقدم إليه أعداؤه شراباً مسموماً. فهرب من المأدبة وهو ينازع، وكان الأسد ينتظره في الخارج. وسقط الرجل عند أقدام الأسد الذي بقي جالساً هناك يزمجر ويرفض أن يدع أي شخص يقترب منه.

وكان پول يستمع بلهفة متسع العينين. ثم سأله بحماسة: «ثم ماذا حدث؟».

ـ أقنعوا ابنة سيده الصغيرة أن تأتي وتقود الأسد إلى قفصه، حتى يتسنى لهم أن يدفنوا الفارينز. ثم أقيمت له جنازة رائعة. شك الجميع بموته مسموماً، ولكنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك. ولا هم عرفوا من الفاعل، إذ كان له أعداء عديدون، وأثناء موكب الجنازة، أصرت زوجة الميت على أن يتبع الأسد النعش. فقادته الابنة الصغيرة بسلسلة ذهبية. وفجأة قفز الأسد على أحد المشيعين وقتله بضربة واحدة، وقبل أن يموت الرجل، صرخ بأنه المذنب... وأنه سمم الفارينز!

فغر پول فاه مذهولاً، عاجزاً عن التصديق ثم سأله:

ـ وكيف عرف الأسد القاتل؟

فهز دومينيكو كتفيه.

ـ من يعلم؟ قد يكون اشتبه به بالصدفة، أو ربما شم رائحة ذنبه. أو لربما همس الفارينز باسم قاتله قبل أن يموت.

ـ وماذا حدث للأسد؟

ـ بقي ضيفاً مبجلاً في قفصه حتى مات، وكما ترى، أصبح شعار أسرتنا.. لقد أصبح أسد فارينز مشهوراً في كل العالم، ويمكن رؤيته في زخارف القصر كلها.

وحدق پول في البوابة.

ـ يبدو عنيفاً وشجاعاً.

لمس دومينيكو رأس الصبي بيد رقيقة.

- ستقابل بعد لحظة واحداً مثله.

فاتسعت عينا پول.

- أهو أسد؟

فهز دومينيكو رأسه.

- بل هو جدك. وبصفته رأس الأسرة، يحمل اسم «أسد فارينز». وهذه هي العادة على الدوام منذ قرون. وكان لذلك معنى في العالم، لكننا الآن فقدنا السلطة التي تمتّعنا بها سابقاً، إلاّ أن اللقب بقي ليذكّر بما تتوقعه الأسرة ممن هو رأس الأسرة... الشجاعة، والشهامة، والوفاء.

بدا پول مرتبكاً بعض الشيء وقد توترت ملامحه الطفولية وقالت نيكولا بحدة: «إنه أصغر من أن يفهمك، لا أريد أن يحمّل ذهنه بتاريخ قديم في عمره هذا، وكل هذه الأساطير الفارغة المنسية أصبحت الآن فارغة من أي معنى. نحن الآن في القرن العشرين وليس في القرون الوسطى».

توترت ملامح دومينيكو المتغطرسة، وبدا للحظة أكثر قدماً من المنزل الذي يتوجهون إليه. وجعلتها نظراته القاسية تتراجع. ثم قال بلهجة ناعمة تنذر بالخطر:

- أريد أن يتشبّع بتاريخ أسرته. لأنه سيرث كل هذا، يوماً ما، وكلما أسرع بتعلم الماضي من منبته، كلما كبر احتمال فهمه لنفسه. كلنا متجذرون في ماضينا، ونتغذى به، كالزهور، ومثلها ندير وجوهنا، إلى الشمس، لنجد القوة فتعيد خلق الماضي في المستقبل.

فسألته ڤانيسا: «ما الذي تتحدث عنه؟ أي شمس؟».

بدت عيناه فجأة مليئتين بالدعابة الخبيثة، فقال: «شمس الحب، والعواطف المحمومة... ماذا غير ذلك؟».

- آه، لقد دخلنا الآن موضوعاً أفهمه.

وضحكت. كانت السيارة تنساب الآن بسهولة في طريق مبلط بالحصى يمرّ بين سياجين مرتفعين. ومن خلال فجوات في السياجين كانت العيون تقع على حديقة إيطالية التصميم، هذه الحديقة التي طالما تحدث عنها پاولو.

سياج من شجيرات قصيرة مشذبة، سرو أخضر سامق، ممرات زلقة بالطحالب وبعض الأعشاب الطفيلية، تماثيل جعلها المطر خضراء لآلهة بارزي العضلات وإلهات يسترن أجسادهن بعباءات خفيفة. كانت نيكولا تعلم أنهن في الحقيقة، تماثيل لنساء قديمات من سيدات الأسرة.

كانت الحديقة منعشة باردة وافرة الظلال، يشوب جوّها شيء من الحزن وكأنها تريد أن تتألق بالألوان تحت شمس إيطاليا الحارة.

خلف كل ذلك قامت «الڤيلا» بيضاء مسوّرة بجدران لصدّ الشمس، جدران بنيت في القرن السادس عشر حول فناء بعيد عن الحرارة ووهج الشمس، موفراً مكاناً منعش البرودة واقياً من الكسل والوهن أثناء النهار. وكانت النوافذ قليلة، ومعظم الغرف تشرف على الفناء.

رأت نيكولا، من ملامح ڤانيسا، أن أختها قد أصيبت بخيبة أمل عميقة. توقعت قصراً رائعاً، دون شك، وإذا بها تجد ڤيلا ريفية واسعة تقوم على أرض رائعة الجمال، لكنها من القدم بحيث أخذت الآن تتفتت دقيقة بعد أخرى. لقد صدّع الزمن الحجر، وأتلف حجارة المبنى، ونثر بذور الخراب في كل مكان.

ومع ذلك، ما زال البيت القديم يمثل نوعاً من الروعة والوقار يواجه الزمن دون انزعاج. كان يموت ببطء، إنشاً بعد إنش. وربما هو في اضمحلاله أروع جمالاً منه في أوج ازدهاره.

وعندما أخذت تحدق إليه بعينين حالمتين استحسانا وتقديراً، شعرت بنظرات دومينيكو النفاذة، فالتفتت تواجهها.

كان يحدق إليها متفحصاً متسائلاً، راجياً تقريباً.

وابتسمت بالرغم عنها، وهي تقول برقة: «إنه جميل!».

فأشرقت ملامحه. وبادلتها عيناه الابتسام.

فصاحت ڤانيسا على الفور، كيلا تختلف عن أختها في الرأي.

- آه، نعم! لا أستطيع وصف جماله... ! خلاّب! إنه بالغ...

وأخذت تبحث عن الكلمة المناسبة لكنها فشلت. وأخيراً انهت كلامها بضعف.

- بالغ... القدم..

تراقصت عينا نيكولا، وقال دومينيك ضاحكاً، ناظراً إلى نيكولا: «نعم».

ثم قال لڤانيسا برزانة: «إنه قديم، أليس كذلك؟».

اندفعت السيارة عبر مدخل الفناء الذي تعلوه قنطرة. ترجّلوا من السيارة ثم التفتوا عندما خرجت امرأة من تحت سقف الشرفة الخشبي ترتدي ملابس ذات لون واحد وقور، لم تعرف بشرتها الشاحبة أي نوع من أدوات التجميل. وتكهنت نيكولا بشخصية المرأة غريزياً. كان شعرها ممشطاً إلى الخلف مرفوعاً عن وجهها المستدير بما يشبه كعكعة مشدودة منتظمة، فبدا معه وجهها مكشوفاً بشكل شاذ. كانت في متوسط العمر في عينيها السوداوين عداء فاضح.

- أنجلينا كيف حالك؟

هتف دومينيكو بذلك وهو يتقدم إليها يقبل وجنتها فرقت ملامحها وهي تتقبل قبلته. ومن فوق كتفه استقرت عيناها على پول محمولاً على كتف نيكولا وقد انحدر رأسه على صدره بإرهاق.

دفعت دومينيكو جانباً ثم تقدمت من نيكولا قائلة بفظاظة: «أعطيني الطفل».

اشتدت يدا نيكولا على ابنها وهي تقطب جبينها. كانت العينان

السوداوان مليئتين بالعداء. لكنها ابتسمت للمرأة بهدوء: «شكراً، من الأفضل أن أبقيه معي حالياً. فهو ليس معتاداً على الغرباء».

قال دومينيكو: «دعي أنجلينا تأخذه. أنت متعبة ولا حاجة بك للحذر، فهي كانت مربية پاولو... وهي تجيد العناية بالأطفال».

نظرت نيكولا إلى الوجه الشاحب بسرعة. وبادلتها أنجلينا النظر دون أن تبتسم، ثم حاولت أن تأخذ منها پول مرة أخرى. فقالت نيكولا بحدة: «لا، إنه في بلاد غريبة، بين قوم غرباء. ويكفيه مواجهة هذا حالياً. إنه بحاجة إلى أن يشعر بالأمان معي فترة بسيطة إلى أن يعتاد وجوده هنا».

وعادت تنظر إلى أنجلينا وقالت بالإيطالية: «إذا أريتني الغرفة المعدة لنا، فسآخذه إلى هناك بنفسي».

بدت الدهشة على وجه أنجلينا وقالت لدومينيكو: «إنها تتحدث لغتنا».

فأومأ دومينيكو قائلاً: «خذيها إلى غرفتها لأن كليهما مرهق».

وفجأة، انبعثت ضجة في ذلك الفناء الهادىء عندما أُغلق باب خرج منه رجل عجوز، تقرع العصا التي يتكىء عليها أرض الفناء المبلط. وكان منحنياً ثقيل الجسم، ذا رأس كبير نبيل محاط بالشعر الفضي. حدق إلى نيكولا والطفل لحظة، وقد تألقت عيناه السوداوان في وجهه المتغضن، ثم قال بصوت أجش: «الصبي...».

التفت دومينيكو ماداً يديه ليأخذ الطفل من أمه، لكن نيكولا هزت رأسها بحزم. ثم سارت ببطء على أرض الفناء ووقفت أمام الرجل العجوز تنظر إليه بهدوء: «پول، هذا هو جدك».

قالت ذلك برقة فائقة.

رفع الطفل رأسه المنهك ثم عينيه اللتين ظللتهما أهدابه المسدلة، ونظر إلى القادم الجديد بفضول.

بادله لورنزو فارينز النظر، متأملاً العينين والشعر الأسودين، والملامح الجميلة والأنف الروماني المستقيم. وسأله پول بلهفة: «هل أنت «أسد فارينز؟»».

نقل لورنزو نظراته إلى نيكولا بابتسامة خفيفة: «هكذا إذن؟ فقد سمع بأسطورة الأسرة. هذا حسن».

وابتسم لپول وهو يومىء برأسه «الأسدي».

ـ نعم، يا پاولو. أنا أسد فارينز... ولكن، يوماً ما، يا صغيري، ستكون أنت الأسد، هل ستحب هذا؟.

أخذ پول يتأمل هذه الفكرة الجديدة، وكان مسروراً: «نعم. أودّ أن أصبح أسد فارينز. سأعضّ الناس».

ألقى لورنزو برأسه إلى الخلف مقهقهاً. أما نيكولا فنظرت إلى دومينيكو بمرارة:

ـ يبدو أن ابني قد ورث صفات الأسرة المهلكة.

فقال برقة وهو ينظر إليها بتسلية ساخرة:

ـ آه! لكننا أوفياء عندما نقع في الحب، وعليك أن تقدري هذه الصفة.

قاطعهما لورنزو بقوله:

ـ أعطيني الطفل. سآخذه أنا إلى غرفته.

فقالت بسرعة:

ـ إنه ينام في غرفتي دوماً.

فهز لورنزو كتفيه: «هذا ما ينبغي أن يكون. فهو بحاجة إلى الرعاية أثناء الليل. نعم. ولكن ذلك في إنكلترا. أما هنا، في إيطاليا، فتوجد انجلينا التي ربت أباه، وهي متلهفة لرعاية الطفل».

أصرّت نيكولا قائلة بأدب: «هذا لطف بالغ منها. لكنني أفضل أن أبقيه معي».

أدار لورنزو إليها وجهاً بارداً مستبداً: «هذا لم يعد مناسباً. أنت أرملة ابني. وهنا يوجد خدم يقومون بهذه المهمات»،

فقالت بهدوء: «لن يهتم أحد سواي بشؤون پول، إلا إذا شئت أنا خلاف ذلك».

نظرت العينان السوداوان إليها بغضب، طالبة الإذعان، فبادلته النظر دون أن تطرف عيناها وقد زمت فمها توتراً. قال لورنزو مزمجراً:

ـ ما هذا يا دومينيكو؟ إنها عنيدة جداً! وهذا غير متوقع من فتاة جميلة...

فضحك دومينيكو:

ـ لا تنسَ أنها إنكليزية، حيث التربية استقلالية عنيدة.. لا نستطيع القيام بشيء حالياً سوى القبول.

ـ أليس لديك أي خدع جميلة للإقناع، يا صغيرة؟ بهذا تصل المرأة إلى غايتها... بالتضرع والإرضاء، وليس بهذا التمرد وعناد التيوس.

ضحكت ڤانيسا محاولة لفت الانتباه: «لا أظنك تقدر على إقناع نيكولا، فهي دوماً تحتقر تلك الطرق».

نظر لورنزو إليها مسروراً: «ولكن... يا للجمال! من تكون هذه؟».

ـ إنها ڤانيسا، شقيقة نيكولا.

قال دومينيكو هذا وعرفهما ببعضهما البعض، انحنى لورنزو فوق يد ڤانيسا بإشارة مؤدبة وهو يتمتم:

ـ آنسة جميلة.

ثم أخذ ينقل النظر بينها وبين أختها.

ـ لستما متشابهتين. رأسك رأس عذراء الرسام «بوتيشيلي» بينما رأس أختك من الحرير الأسود بتألق ناري...

www.elromancia.com

وضحكت ڤانيسا برقة:

- يا لها من فطنة بالغة! إنك ماهر، «يا سنيور».

- إنك تعرف صفات الشخص من رؤيته.

سألها دومينيكو وعيناه على نيكولا: «وهل في أختك نار؟ كنت أظن أن ليس خلف هاتين العينين الخضراوين سوى الثلج».

فعبست ڤانيسا: «لم تتأثر نيكولا عاطفياً سوى مرة واحدة في حياتها، وذلك عندما تعرفت إلى پاولو».

فقال لورنزو وقد بدت عليه التسلية:

- آه! لقد اشتعلت بالنار تأثراً بپاولو إذن؟

توترت شفتا دومينيكو وقال ساخراً:

- يا لها من لغز! هذه الفتاة ذات اللهب في رأسها والثلج في عينيها.

تأبطت ڤانيسا ذراعه، قائلة: «نيكولا تنتظر أن تأخذ پول إلى سريره، يا للمسكينة! إنها متعبة».

كانت ڤانيسا متضايقة، لكن لهجتها اتّسمت بالرقة.

دخلوا جميعاً المنزل، فوجدوا أنفسهم في صالة شامخة السقف ذات أرضية رخامية تصعد منها السلالم المتلوية إلى الطوابق العليا. وهناك وقفت فتاة تنتظرهم وهي عاقدة ذراعيها على صدرها بصبر مناقض لمظهر الغضب البادي على ثغرها الأحمر المزموم.

- آه! يا عزيزتي «بيانكا»، تعالي وتعرفي إلى زوجة پياولو وابنه!

وكان صوت لورنزو دافئاً لكنه مضطرب وكأنه كان ينتظر تقريباً ردة الفعل التي تلقاها.

- هل علي أن أنحني احتراماً لسيدة هذا البيت الجديدة؟

كان الصوت أشبه بلسعة سوط حادة. فتوهج وجه لورنزو غضباً.

- ما هذا؟ كيف تجرؤين على الكلام بهذا الشكل أمام الغرباء؟

أجابت الفتاة ساخرة: «آه... إنهم غرباء، اليس كذلك؟ ولكن عليك أن تهدىء هؤلاء الغرباء وترضيهم... وتعبدهم تقريباً... لأنهم أحضروا لك وريثاً جديداً لثروتك، أليس كذلك؟».

وبالغت في الانحناء وعلى شفتيها ابتسامة مرة: «أهلاً بك يا «سنيورا» في «ڤيلا فارينز». قبل مجيئك كنا آمنين في جمعنا الصغير. وإذا بكل شيء يتغير فجأة... الخادمة الحقيرة التي سرقت پاولو منا أتحفتنا فجأة بوريث جديد، بصبي رائع لكي يحمل اسم أسرتنا! وما بين ليلة وضحاها أصبحت كل الكراهية منسية وتبدلت الخادمة إلى سيدة... سيدة معززة مكرمة مدللة».

- اسكتي يا بيانكا.

واندفع دومينيكو نحوها ليمسك بكتفيها، لكنها تجنبته، وعيناها السوداوان مغرورقتان بدموع لا تنهمر وهي تنظر إلى نيكولا. كانت بيانكا رشيقة ذات بشرة ذهبية بلون المشمش، وشعر ناعم أسود ووجه صغير دقيق التقاطع. لكنها الآن بدت وكأنها شيطان الانتقام.

- أنا خبيثة، أليس كذلك؟ لكنني أقول الحقيقة، وهذا خطأ دوماً في هذا البيت!

فرد عليها بحدة:

- بل تقولين كلاماً فارغاً.

- وهل أنت أيضاً أصبحت في صفها؟ هل نسيت الحزن الذي سببه ذلك الزواج لنا جميعاً؟ مسكينة «باربرا»... رفضها پاولو بعد أن ظن الجميع أنها ستكون زوجته، فكر في حزنها... أعز صديقة إلى قلبي، والصديقة التي كان يجب أن تصبح جزءاً من هذه الأسرة!

نظرت نيكولا إلى لورنزو وقالت بهدوء:

- من غير المناسب أن يرى پول هذا المشهد. أودّ أن أذهب إلى غرفتي.

أومأت أنجلينا برأسها وأشارت إليها بأن تتبعها ولحقت بها نيكولا متجاهلة هياج بيانكا وبكاءها.

نظرت مرة واحدة إلى الأسفل وهي تستدير حول عطفة السلم فرأت دومينيكو يحيط الفتاة بذراعيه ويمر بيده على الشعر الأسود برقة، وفمه يعلو رأسها المنحني بإنش واحد.

ونظرت أنجلينا إلى أسفل هي أيضاً، وابتسمت: «آه! سرعان ما سيروضها دومينيكو عندما يتزوجها ويعلّمها سبب هذه الدوافع المحمومة التي تشعر بها...».

ـ هل سيتزوجان؟

وشعرت نيكولا بماء بارد يغمر جسدها وهما يصعدان الطوابق العليا. وحدثت نفسها أن الجدران رطبة وإلا لماذا ترتجف من هذا البرد المؤلم؟

* * *

٥ ـ دون جوان

كانت الغرفة المعدة لپول رائعة، وكان السرير الذي تم شراؤه خصيصاً لأجله، أبيض، مزداناً برسوم ملونة للحيوانات، والأغطية بديعة الألوان، وبجانبه قامت خزانة ألعاب وفوقها رفوف عليها كتب مصوّرة جميلة وكان سرير للكبار يحتل الجزء الآخر من الغرفة.

أشارت نيكولا إليه بأدب: «سأنام هناك».

بدا التمرد على أنجلينا: «ليست هذه الأوامر التي تلقيتها».

ـ أنا والدة پول... وسأنام في غرفته كما فعلت دوماً، ومن الخطأ أن يتغير كل شيء عليه دفعة واحدة. عندما يعتاد على هذه الغرفة، قد أنتقل منها، إنما حالياً، من الحكمة أن أجعله يشعر بالأمان قدر الإمكان.

أصغت أنجلينا إليها بشيء من الارتياب. ثم هزت كتفيها.

ـ كما تشائين، يا سنيورا.

بدا الاحترام في لهجتها. ورأت نيكولا أن موقف هذه المرأة منها قد تغير منذ أول مشاحنة بينهما في الطابق الأسفل، فاكتشاف أنجلينا بأن نيكولا تجيد الإيطالية جعلها تميل إلى محبتها.

استلقى پول في سريره منهكاً، وأخذت نيكولا تخلع عنه ثيابه، وأشارت أنجيلينا لها إلى حوض الغسيل في آخر الغرفة، وأخذ پول يتململ وأمه تغسل له وجهه ويديه. وكثر تثاؤبه.

www.elromancia.com

أخذت نيكولا تهزه في مهده برفق، وشعره الأسود رطب بعض الشيء حتى أغمض جفنيه على عينيه السوداوين المتألقتين.

ركعت انجيلينا بجانب المهد وأخذت تتأمله وقد أضاء الحنان بشرتها ولمعت عيناها بالدموع.

- انه ابن أبيه! وبجماله. إنه ملاك!

ابتسمت نيكولا وتملكها التأثر وقالت بجفاء: «نعم، إنه يبدو ملائكياً الآن. ولكن من الصعب عليك مجاراته عندما يكون مستيقظاً تماماً».

ضحكت المرأة بلهفة: «سنيورا... الن تسمحي لي برعايته؟ هل ستحتفظين به لنفسك فقط؟».

تحركت مشاعر نيكولا وشعرت بالخزي، فقالت بسرعة إذ لم تشأ أن تؤلمها: «سأكون شاكرة لك جداً مساعدتك لي».

- أبوه كان أشبه بابن لي، كنت سعيدة برعايته، وسيسعدني جداً أن أقوم بالمثل مع هذا الصغير... سعادة لم أعتقد أنها ممكنة.

ورفعت بصرها إلى نيكولا وشفتاها ترتجفان.

- كنت أكرهك يا سنيورا. اعترف بذلك صراحةً، فقد أعتقدت أنك شريرة لأنك سرقت پاولو منا. ولكن هذا كان في الماضي. وقد أحضرت لي پاولو آخر، هل ستصفحين عني لكراهيتي لك؟

فقالت نيكولا تطمئنها برازانة: «طبعاً، فأنا متفهمة تماماً. فأنا أعرف ما كان عليه شعورك».

رقّت أسارير أنجلينا لشعورها بعرفان الجميل، وبدت أكثر صبا، وعادت تنظر إلى پول، الذي كان مستغرقاً في النوم وإبهامه في فمه.

- الصغير نائم. هل تسمحين لي بأن أريك الغرفة التي أعددناها لك؟ يمكننا أن ننقل المهد إلى تلك الغرفة غداً.

- لكن هذه الغرفة تناسبني تماماً. أخبريني من يعيش هنا، عدا

بيانكا والسنيور لورنزوا؟

فقالت أنجيلينا: «هناك دومينيكو. إنه يعيش هنا أيضاً. وأمه طبعاً».

- ألم تكن موجودة هنا عندما جئنا؟

- نادراً ما تترك غرفتها قبل المساء، فصحتها ضعيفة جداً.

- فهمت أنها مسؤولة عن إدارة المنزل.

أومأت أنجيلينا: «نعم، لكنها طبعاً، تعطي الأوامر. لأن بيانكا صغيرة».

- ومتى سأقابل السنيورا فارينز؟

هزت المرأة كتفيها: «طلبت أن نأخذك لتريها حالما ترتاحين من السفر. إذا رفعت غطاء السرير هذا، فهل سترتاحين عليه؟».

وسارت إلى النافذة ترخي الستائر. وبدت الغرفة في العتمة ساكنة هادئة، ونظرت نيكولا إلى السرير بشوق.

- سيكون هذا حسناً جداً.

أشارت أنجيلينا إليها لتجلس على السرير، ثم انحنت تخلع لها حذاءها.

- سأناديك قبل العشاء بساعة، يمكنك أن تغتسلي وتغيري ملابسك. هذه الليلة سيغير السنيور لورنزو ملابسه عند العشاء على شرفك. إنما نامي الآن.

وذهلت نيكولا بأنها استغرقت في النوم حالما أغمضت عينيها، فقد أنعشت برودة الغرفة جسدها المرهق. واستيقظت في السادسة عندما أخذ پول يتحرك. وقد جعله نومه الطويل جائعاً وفضولياً.

وعندما ابتسمت له قال: «أريد الشاي، لماذا أنت في السرير يا ماما؟ هل نحن في الصباح؟».

- بل هو المساء، لقد نمت مدة طويلة. ابق مكانك وسأرى ما

يمكنني أن أجد لأجلك.

سارت إلى الباب تنظر من خلاله. ثمة ممر ضيق يلتف حول كل ناحية من الغرفة، وتذكرت أنها جاءت من ناحية اليسار، فسارت إلى هناك تبحث عن السلم، وانفتح باب خرج منه دومينيكو ثم وقف جامداً مكانه، يحدق إليها، وقد رفع حاجبيه هازلاً: «حافية القدمين؟».

احمر وجهها وهي تنظر إلى قدميها بدهشة فقد نسيت أن تنتعل حذاءها حين ناداها پول.

- إنني أبحث عن أنجيلينا. پول جائع.

عاد يفتح الباب خلفه وهو يقول: «ارمي عصفورين بحجر واحد. تعرفي إلى أمي ثم اتصلي بأنجيلينا هاتفياً في الوقت نفسه».

- أتصل بها هاتفياً؟

لا شك أن النوم جعلها غبية لأنها لم تفهمه جيداً.

- ثمة جهاز اتصال هنا، وهاتف في غرفتك وليس عليك سوى الاتصال بأنجيلينا في المطبخ. إن بيتاً بهذا الحجم يحتاج إلى جهاز اتصالات بين ساكنيه، ونحن لا نستطيع أن نصرخ، أليس كذلك؟

عاد وجهها يتوهج احمراراً.. إنه حقاً حيوان متعجرف.

وكيف كان بإمكانها أن تعلم بجهاز الاتصالات الهاتفي هذا؟ إن أحداً لم يخبرها عنه، وما كان له أن يسخر منها.

كانت الغرفة التي أشار لها بدخولها مترفة دون كثير من الزينة والزخارف. والستائر والسجادة خضراء فاتحة اللون وأغطية السرير تلائمها لوناً. وعلى الوسادة الخضراء مُلقى رأس نحيل مغضن. وبدت العينان تملأهما الحيوية بشكل مذهل وهما تبتسمان لنيكولا.

- أهلاً بك في «ڤيلا فارينز»، يا عزيزتي.

قالت ذلك صوت إيطالي رقيق.

بادلتها نيكولا الابتسام. لوالدة دومينيكو شعر فضي رائع. عيناها

بلون عيني ابنها، كما أن فمها بالغ الرقة والحساسية.

فكرت نيكولا أنّ ملامحها ليست إيطالية. وتمتمت تقول بأدب: «يا لها من غرفة جميلة!».

فضحكت السيدة فارينز برقة: «نعم. أنا أحب اللون الأخضر، إنه يذكرني بإنكلترا».

- بإنكلترا؟

هتفت نيكولا بذلك بدهشة، فنظرت المرأة إلى ابنها مستفهمة.

- ألم تخبرها؟ لِمَ لا، يا دومينيكو؟

فنظر إلى نيكولا ساخراً: «كانت ضد الإيطاليين بشكل عنيف فظننت أنني سأبدو وكأنني أعتذر لو قلت لها إنني نصف انكليزي».

ألقت نيكولا عليه نظرة باردة، ثم التفتت إلى الأم: «هل أنت إنكليزية؟».

فابتسمت السنيورا: «ولدت هناك. لكن أسرتي عاشت هنا في إيطاليا مدة طويلة حتى أصبحت أكثر من نصف إيطالية. الإيطالية لغتي وإن كنت أتكلم الانكليزية طبعاً. وأحب كثيراً أن أذهب إلى أنكلترا في الربيع».

وتنهدت وهي تنظر إلى منظر طبيعي في لوحة معلقة فوق سريرها.

- لن أتمكن أبداً من الذهاب مجدداً. عليّ أن أعيش على ذكرياتي.

- في أي مكان في أنكلترا موطنك؟

- أقرباتي يعيشون في «نورفولك». وهناك كنت أمكث عندما أذهب إلى انكلترا في اجازاتي السنوية... دوماً في الربيع.

ورفعت بصرها إلى سماء إيطاليا الزرقاء خارج النافذة، وكان الغسق يكسوها الآن، ناعماً كثيباً شاعرياً معتماً. ورأت نيكولا أن عيني المرأة هما، في الحقيقة زرقاوان، وأكثر تألقاً من العينين الرماديتين اللتين أورثتهما لابنها.

عادت تنظر إليها، فضحكت السيدة: «لكنني اخترت إيطاليا. وفي إيطاليا تكمن أسعد ذكريات حياتي، وما كنت سأسعد في أي مكان آخر. وتقسيم الولاء هو دوماً مؤلم للغاية».

ـ نعم. أظن أنك محقة.

قالت نيكولا ذلك، ثم أجفلت وهي تفكر في ابنها. إن اختياراً هائلاً ينتظرهما، هما الاثنين. ولاحظت السيدة فارينز ما بدا على وجهها فتنهدت متعاطفة.

ـ نعم، أنت أيضاً تعرفين ألم الاختيار.

اقترب دومينيكو منهما، وأحست به نيكولا خلف كتفها بالضبط. وقال بخشونة: «لقد تزوجت رجلاً إيطالياً. لقد قامت بالاختيار حين فعلت ذلك، فالمرأة يجب أن تنتمي إلى بلد زوجها».

قطبت أمه جبينها وقد بدت عليها الدهشة: «دومينيكو. أنت تتحدث مع نيكولا بفظاظة».

وابتسمت للفتاة.

ـ هل تسمحين لي بأن أدعوك باسمك الأول؟ وهلا دعوتني عمتي فرنسيسكا؟

ـ شكراً، هذا يسرني.

سار دومينيكو إلى المنضدة بجانب السرير ورفع سماعة الهاتف حيث تحدث بالإيطالية باقتضاب، ثم وضع السماعة.

ـ أنجلينا ستحضر الشاي لپول حالاً. سألت عما يحب أن يأكل، فأخبرتها أن تحضر بيضة مسلوقة وبعض الخبز والزبدة، أظن هذا يناسبه؟

فقالت بفتور: «تماماً».

وقالت أمه بلهفة: «متى سأسعد برؤيته؟».

ـ هل أحضره الآن لتربه؟ إنه مستيقظ.

ـ هل لك أن تفعلي هذا لأجلي؟ ذلك يسرني جداً.

عادت نيكولا مسرعة إلى غرفتها وابنها. كان جالساً في مهده يحدق إلى الألعاب التي على الرفوف.

ـ هل تلك لأجلي، أم هناك ولد آخر هنا؟

ـ أظنها كلها لك.

ـ هل يمكنني أن العب بها الآن، يا ماما؟

ـ فيما بعد، يا حبيبي. أريد منك الآن أن تأتي معي لترى عمة جديدة، يجب أن تناديها عمتي فرنسيسكا. إنها كبيرة جداً، ولهذا ستكون ولداً عاقلاً. اليس كذلك؟

ـ نعم يا ماما. ماما، هل يوجد أناس كثيرون في هذه الأسرة؟

ـ نعم، هذا ما أظنه.

فتنهد: «هل جميعهم كبار في السن؟ ما من أولاد هنا أبداً؟».

صحكت: «علينا أن نسأل العمة فرنسيسكا عن ذلك يا عزيزي، تعال معي لتراها».

ورفعته من سريره ثم أخذته إلى الغرفة الأخرى.

كان دومينيكو جالساً بجانب السرير، وعاد ينظر إلى قدميها الحافيتين بسخرية فتمنت غاضبة لو يكف عن إغاظتها، كما تمنت لو تذكرت أن تنتعل حذاءها، فقد اعتادت في شقتها في لندن أن تسير حافية.

فتنت السيدة فارينز بپول، وأجلسته على السرير بجانبها وأخذت تتحدث معه. سألها عن صبية آخرين، فأخبرته بحزن أن عددهم قليل في الأسرة، ولكن هناك أقارب بعيدين، لهم اولاد في سنّه وأكبر. وقالت تعده: «يجب أن ندعوهم إلى هنا ليلعبوا معك».

جاءت أنجلينا بعد لحظات وأخذت پول إلى غرفته لكي يأكل. بينما خرجت نيكولا أيضاً فوجدت أن أنجلينا قد اعدت الحمام لها، بما

www.elromancia.com

في ذلك المناشف وعطور الحمام الغالية الثمن التي وضعتها في مياة الحوض، فجلست فيه شاكرة شاعرة بعضلاتها المتعبة تسترخي.

وعندما عادت إلى غرفتها وجدت أن پول عاد إلى سريره وأنجيلينا تغني له بإيطالية رقيقة. وكان يتثاءب فقبلته نيكولا تحية المساء، وقبل أن تنهي ارتداء ملابسها، كان قد استغرق في النوم.

أخبرتها العمة فرنسيسكا أن العشاء يقدَّم عادة عند الساعة الثامنة والواقع أن دومينيكو أخذها إلى غرفة طعام منعشة في ناحية الفناء من المنزل، كانت الشموع تضطرب في النسيم الذي يهب من الفناء عبر الباب الزجاجي، بينما الستائر المعلقة خلفهم تتحرك متأرجحه، وكان الهواء يحمل شذا نبات الغاريقون المفتّر للحواس إلى الغرفة.

ومن مكان ما، تناهت إلى مسامعهم أنغام قيثارة اخترقت الصمت برقة. كان اللحن غير مألوف لكن نيكولا وجدته مفعماً بالحنين والشوق والحب.

تكلمت ڤانيسا، وضحكت، وتغامزت. وكانت هالة ذهبية تتألق حول رأسها وهي تبتسم بشكل حميم لدومينيكو الذي حرص على إرضائها.

وجلست بيانكا أمامهما تنظر إليهما شزراً. وأخذت تقلّب طعامها في طبقها كالأطفال، وهي تعض شفتها السفلى بأسنانها الصغيرة البيضاء، ومن الغريب أن بيانكا ذكّرت نيكولا، رغم كل عدائها وفظاظتها، بطفلة متألمة متحدية.

أما لورنزو فارينز فقد جلس على رأس المائدة، وقد أحنى رأسه الشبيه برأس الأسد وكأنه على وشك المهاجمة، وكان قد ارتدى سترة سوداء وقميصاً أبيض وربطة عنق سوداء.

أما ڤانيسا فأمضت وقتاً طويلاً لتختار أفضل ثوب يمكن أن ترتديه في أول حفلة عشاء في «الڤيلا»، وأخيراً استقرت على ثوب كلاسيكي

الطراز من الحرير كشف عن عنقها وكتفيها.

أما نيكولا التي أحضرت معها ثوبين للمساء فقط، فارتدت ثوباً من الشيفون الأخضر المنقوش بالأزهار الصفراء لهذه الليلة، وقد سمحت لڤانيسا بأن تسرّح لها شعرها على شكل كرة فرنسية الطراز على قمة رأسها. ولكن، بعد أن رأت نفسها في المرآة، وجدت أن ذلك يمنحها مظهراً قاسياً نوعاً ما.

ناولها دومينيكو طبق الفاكهة وعيناه تقومانها بنظرة باردة.

- أفضل شعرك منسدلاً. لا يناسبك بهذا الشكل، فهو يظهرك كمعلمة مدرسة.

- آه!

واختارت شيئاً من الفاكهة دون وعي لما اختارته.

وقالت بيانكا بلؤم:

- توقعنا أن نراك كمتشردات الشوارع.

فلسعها صوت لورنزو كالسوط.

- بيانكا! هل فقدت تهذيبك؟ كيف تتجرأين وتتكلمين بهذه الطريقة إلى الضيفة؟

ردت بحدة وهي تلقي برأسها إلى الخلف بتمرد: «أقول هذا لأنني لست ماكرة».

- إنك تتصرفين كأولاد الشوارع، وهذا ما لا أسمح به في بيتي. إما أن تصلحي سلوكك وإما أن ترحلي.

فذعرت وشحب لونها: «أتطردني لأجلها؟».

- لقد أهنت ضيفة على مائدتي ولهذا يجب أن تتلقي العقاب.

- وإلى أين أذهب؟

ونظرت إليه بعينين دامعتين.

- بيت أخيك واسع. إما أن تصوني لسانك أو تذهبي إلى «ليو».

- ما الذي تقولونه عني؟

جاء هذا الصوت من عند الباب فاستدارت العيون إليه.

كان الرجل الواقف على العتبة جعد الشعر أسوده، ذا وجه وسيم تبدو عليه الدعابة، يحمل بيده غيتاراً ويرتدي قميصاً برتقاليا من الحرير وبنطلوناً أسود ضيقاً فبدا لنيكولا وهي تنظر إليه باستمتاع كأنه راقص «فلامنكو» أسباني، ونظرت إلى دومينيكو فرأته ينظر إليها بإمعان.

رأت وجهه متجهماً وعيناه ضيقتين فحولت نظراتها عنه وهي تكتم ابتسامة. وتذكرت تحذيره لها من أن ليو زير نساء. ورأت أن ليو بالغ الجاذبية للنساء فعلاً.

- ادخل يا ليو.

قال لورنزو ذلك باستسلام.

- لماذا لم تدعُني إلى هذا الاجتماع غير العادي؟ أم كان عليّ أن اطلب هذا؟

ودخل الغرفة.

- أراكم أنهيتم الطعام. ألا أستحق أن أشرب معكم القهوة؟

- لم أدعك لأنني أردت أن تكون هذه الحفلة حميمة في أول مساء لنا.

قال لورنزو ذلك بحدة.

شمل ليو وجوه الحاضرين بنظراته المتألقة، وضحك لأخته. وتأمل ڤانيسا بسرعة ثم نيكولا. وقال بوقاحة: «كتب پاولو إلينا بأن لنيكولا شعراً كالحرير الأسود. وهكذا أظن أن بإمكاني أن أخمن من هي والدة أميرنا الصغير».

وعندما حدق إليها، ألقت عليه نظرة طويلة مفكرة: «نعم. أنا نيكولا».

أخذت نظراته الوقحة تقوّم كل إنش منها، ثم قال أخيراً: «يتمتع

پاولو بذوق مرهف».

تجمدت يد دومينيكو على المائدة، ورأتها نيكولا، عندما كانت تحول نظراتها عن نظرات ليو. قال دومينيكو ببرودة الثلج:

- اجلس يا ليو.

سحب ليو كرسياً جلس عليه بجانب شقيقته ثم ضحك لدومينيكو:

- أشعر وكأن سيف المبارزة بين أضلعي، لكنني لا أدري لماذا.

- ربما دومينيكو مثلي، يشعر بأن عليك أن تتلقى درساً في حسن السلوك.

قالت ڤانيسا ذلك بحدة، فطرفت نيكولا بعينيها ذاهلة.. لم يسبق أن سمعت أختها قط من قبل تتحدث بمثل هذه الحدة إلى رجل جذاب. أترى ڤانيسا شعرت بكراهية غريزية لليو؟ أم تراها تساند دومينيكو ضد القادم الجديد؟ هذا القادم الجديد الذي لم يبد عليه التأثر بجمال ڤانيسا الأشقر، وهذا وحده سبب كافٍ ليجعلها تكرهه؟

لكن ليو كان ينظر الآن إلى ڤانيسا، وقد ارتفع حاجباه بمزيج من الذهول والسخرية، واحمر وجه ڤانيسا تحت نظراته. وعندما حولت عينيها عنه ضحك بنعومة وقال معتذراً بدعابة.

- هل ستعلمينني آداب السلوك، يا آنسة، عرّفنا ببعضنا يا دومينيكو.

أجاب دومينيكو بحدة: «ڤانيسا تعرف من أنت، يا ليو. وهي أخت نيكولا ڤانيسا مايفيلد».

- اسم جميل، يا لهما من فتاتين جميلتين! ومع ذلك هما غير متشابهتين! أسرتكما محظوظة، هل هناك غيركما في انكلترا؟

أجابت نيكولا وهي ترى أختها صامتة: «لا، ليس هناك غيرنا».

- وهل ستسكنان، أنتما الاثنتين، هنا في «الڤيلا»؟

عاد لورنزو يتدخل: «اشرب قهوتك وأنت ساكت يالليو، لقد سبق

أن أخبرتك برأيي في حياتك الطائشة التي تعيشها في برجك.. أما هنا، فعليك على الأقل أن تتصرف حسب مبادئي ولو من باب الرياء».

- يا عمي العزيز لورنزو.

تمتم ليو بذلك نافخاً خده بسخرية مكتومة فتحركت بيانكا بقلق، محاولة النظر في عيني أخيها. ورأت نيكولا أنها تتوسل إليه كي يسترضي لورنزو فارينز، فهز ليو كتفيه في البداية، ثم عاد يبتسم ليطمئنها. كان واضحاً أن ليو، رغم وقاحته، يعطف على فرد على الأقل في هذا البيت.

وسألته بأدب، محاولة تغيير موضوع الحديث: «سمعت أنك ترسم».

أومأ وقد تبدّلت ملامحه:

- نعم، بطريقة معيّنة.

فقال دومينيكو بحدة: «لا تسمحا له بأن يغري أيّاً منكما بالذهاب إلى برجه بحجة أنه سيرسمكما. إن رسمه للبشر غير مفهوم، لا أعضاء ولا ملامح... إنهم مجرد أطياف ولطخ».

فقال ليو بلهجة ممطوطة:

- ابن عمي ناقد فني.

فقال دومينيكو:

- أنا لست جاهلاً بالفن. إنك هاوٍ نموذجي يا ليو والفن بالنسبة إليك عذر للبطالة والكسل.

ضاقت عينا ليو:

- أنا أنحني لمعرفتك المتفوقة، يا ابن العم.

وكان تهكمه هذا ممزوجاً بالعداء، فتابع دومينيكو بلهجة لاذعة.

- البطالة التي توفر لك الوقت للقيام بعملك الحقيقي.

- وما عملي الحقيقي؟

سأله ليو هذا لاوياً شفتيه بغطرسة.

- العبث والغزل، تسلية نفسك بالعبث بمشاعر الفتيات الصغيرات الحمقاوات.

وحدق دومينيكو إليه بحقد.

- أنت رجل خطر، يا ليو. فأنت تدير رؤوسهن وتحطم قلوبهن، ثم تترك لنا مهمة استرضاء أسرهن وتهدئة غضب آبائهن الجامح العنيف.

اتكأ ليو إلى الخلف يعبث بالملعقة في الكوب، وقد ضاقت عيناه واختفتا تقريباً بجفنيه المسدلين: «أنت تجعلني أبدو وكأنني «دون جوان» يا ابن العم، أرجو أن تدرك ضيفتانا أن تقريعك هذا هو تحذير لمصلحتهما».

ورفع جفنيه محوّلاً عينيه إلى ڤانيسا ثم استقرتا على نيكولا وقال: «هل تشعرين بأنك في خطر من جاذبيتي يا سيدتي؟ إذا كان هذا فاحسبي حساباً لما يقوله دومينيكو وانتبهي!».

ابتسمت بشيء من الارتباك، وقالت: «أنا اشك في أنني في خطر، ولكن شكراً لتحذيرك هذا».

اتسعت عينا ليو وتركزتا عليها لحظة أو اثنتين، وقد تعمقت ابتسامته وأصبحت أكثر صدقاً، وتلاشت الوقاحة من وجهه. ثم نهض وانحنى على المائدة، وأخذ يدها فقبلها بشهامة مسرحية، وهو يتمتم: «نيكولا... يا له من اسم ساحر!».

فضحكت قائلة:

- أظنك محتالاً.

نظر إليها متسائلاً:

- هل هذا هو الرد؟.

فأومأت هازلة: «أنت تحب اللعب، ودوماً يدهشك ألاّ يفهم الآخرون قواعدك».

www.elromancia.com

قهقه بصوت عال: «جميلة وذكية، وهذا مزيج نادر في هذا العالم الممل! أنا أحيّي ذكرى پاولو... الذي عثر على جوهرة حقيقية. نيكولا، سنكون صديقين، أليس كذلك؟

تشابكت نظراتهما، ولمحت إخلاصاً خلف تلك المباهاة والوقاحة، وشعرت نحوه بمودة وعطف. وقالت بهدوء: «نعم. أظننا سنكون صديقين».

احتكت كرسي دومينيكو بالأرض الرخامية، ثم قال بصوت جعله الكبت كالثلج:

ـ هل ننتقل لنجلس ساعة في الفناء، يا لورنزو؟

* * *

٦ ـ لن تأمرني امرأة

عندما استيقظت نيكولا في الصباح التالي، استغربت وجودها في غرفة غريبة، لكنها جلست بعد لحظات في سريرها تبتسم بحنان لپول الذي نزل من سريره وسار إليها وجلس على صدرها قائلاً وهو يكاد يخنقها بتطويقه عنقها: «أريد فطوراً».

فقبلت أنفه!

ـ ستحصل على ذلك يا حبيبي، دع ماما تنهض وتساعدك على ارتداء ملابسك.

انفتح الباب ودخلت أنجيلينا حاملة صينية وهي تبتسم، وعرفها پول وضحك لها مرّحباً عندما رأى الطعام الذي تحمله.

وضعت أنجيلينا الصينية مسرورة وهي تحييه بالإيطالية.

ـ صباح الخير يا پاولو!

فنزل پول من السرير وسار نحوها: «فطوري؟».

وأخذ يتفحص محتويات الصينية. عصير فواكه، بيضة مسلوقة، حليب وكرات من الخبز الساخن لكنه أخذ يرطن غاضباً بكلام لم تفهمه أنجيلينا. فسألت نيكولا مرتبكة: «ماذا يريد؟».

فضحكت هذه: «إنه يريد هريسة الحبوب التي كان يأكلها في الوطن.. پول، كل بيضة فقط اليوم».

فقال بدمانة: «نعم».

www.elromancia.com

ونظر حوله.

ـ الفوطة.

أسرعت أنجيلينا تحضرها من الدرج حيث وضعت حوائجه الليلة الماضية، فانتظر الصبي بصبر وهي تلفها حوله، ثم تناول الملعقة فأسرعت تشق كرة خبز تدهنها له بالزبدة.

وساد الصمت بينما أخذ پول يأكل والمرأتان تراقبانه بافتتان ثم قالت المرأة بلهفة: «سأرعاه لأجلك يا سيدتي، لأنك ستذهبين في نزهة بالسيارة مع السيد».

ترددت نيكولا ثم سألتها: «السيد الكبير أم... دومينيكو؟».

ـ السيد الكبير... السيد لورنزو بنفسه.

رفع پول بصره باهتمام: «جدي الأسد؟».

قال ذلك بسرعة وفمه محشوّ بالطعام.

ـ لا تتكلم وفمك مملوء يا حبيبي.

قالت نيكولا هذا باسمة ولكن بذهن شارد، وتابعت:

ـ أتعلمين إلى أين سنذهب يا أنجيلينا؟

ـ لزيارة كروم العنب هذا الصباح، وبعد ذلك إلى فلورنسا.

ـ هذا ممتع جداً. هل أنت واثقة من أن پول لن يزعجك؟

ـ سأكون سعيدة جداً برعايته. أتظنينه سيقبل البقاء معي؟ ألن يشعر بالخجل مني؟

فأجابت نيكولا: «إنه معتاد على المكوث مع حاضنات أطفال. عندما يعرفك ويطمئن إليك هنا في «الڤيلا» فسيكون مسروراً جداً. إنه طفل سهل المعشر».

أومأت أنجيلينا: «إنه ملاك».

وكان پول قد أنهى فطوره. وشرب فنجان الحليب حتى الثمالة ثم وضعه على الصينية بقوة، ومسح فمه بالفوطة.

أخذته أنجيلينا إلى الحمام بينما أخذت نيكولا تبحث في خزانتها عن ثوب مناسب. اختارت ثوباً من الكتان الأبيض وقبعة عريضة الحوافي. وهي ملابس بسيطة تصلح لكل يوم، وأنيقة لزيارة فلورنسا.

دخلت الحمام تغتسل وترتدي ملابسها، وعندما تهيأت للخروج رأت پول يلعب في الفناء على دراجة بثلاث عجلات بينما جلست أنجيلينا تراقبه وعلى ركبتيها سلة خضروات تعدّها للغذاء.

نظرت نيكولا إليهما لحظة ثم تقدمت تتحدث إليهما، وحياها پول بحماسة مشيراً إلى الدراجة.

ـ انظري يا ماما، عندي دراجة!

وقالت أنجيلينا باسمة: «إنها لأحد أولاد ابنة عمي، وقد كبر الآن عليها».

ـ پول سعيد الآن، أليس كذلك؟.

وأخذت نيكولا تنظر إلى طفلها بسرور. من الرائع أن تراه سعيداً بهذا الشكل.

ـ أشكرك جداً يا أنجيلينا. أنا شاكرة لك. لطالما احتاج لفسحة حوله ليركب الدراجة. شقتنا في لندن ضيقة بالنسبة لطفل.

ـ أنا مسرور لصدقك في الاعتراف بهذا.

جاءها هذا الصوت من خلفها فجعلها تجفل وجعل وجنتيها تحمران.

نظر إليها دومينيكو هازلاً: «لم أظن قط أنك قد تعترفين يوماً أن الحياة هنا قد تكون حسنة لپول!».

ـ المال والحرية قد يجلبان السرور، لكنهما ليسا دوماً أفضل ما يمكن تقديمه للأولاد.

أخذ ينظر إلى پول وهو يدور بدراجته مشرق الوجه.

ـ الولد يبدو سعيداً. ما هو الخطأ في ذلك؟

elromancia.com

- لا شيء.

قالت ذلك بخشونة بينما أخذت أنجيلينا تنقل النظر بينهما وقد حيّرها هذا التوتر البادي بينهما.

- يريد لورنزو أن يأخذك إلى الكروم اليوم، وبعد ذلك إلى مطعمه المفضل في فلورنسا حيث حجز مائدة للغداء. إنه صغير ومعتم ولكنه يقدم أشهى طعام في إيطاليا.

- سبق أن ذكرت لي أنجيلينا هذا. وهي سترعى پول لأجلي.

قال ساخراً: «وهل وافقت أنت؟ العجائب لا تنتهي أبداً».

فقالت باستياء: «فكرتك عني بالنسبة إلى پول خاطئة تماماً. أردت أن أكون موجودة إلى أن يعتاد على ما حوله. لكنه يبدو الآن مطمئناً بشكل يجعلني لا أمانع في تركه لفترة ما بين أيد أمينة».

- كيف استطعت تدبير أمورك عندما كنت تذهبين للعمل؟ هل كانت أختك ترعاه؟

- احياناً. وكذلك شريكتنا الثالثة في الشقة وهي لطيفة للغاية، وبشكل ما، تمكنتُ من تدبير أموري.

نظر إليها بعينين ضيقتين: «نعم، أنت مقتدرة تماماً».

جعلتها هذه الكلمة تشعر بالبلادة والاسترجال... أشاحت بوجهها تخفي ضيقها. ونزلت خصلة من شعرها على خدها فأزاحتها إلى خلف أذنها ريثما تجد مرآة وتعيد تسريح شعرها.

دخلت ڤانيسا إلى الفناء، رشيقة ملائكية في زي عصري يحاكي الزي الريفي... وبدت كفتاة صغيرة بشعرها الأشقر الذي يموج حول كتفيها وعينيها البراقتين.

شعرت نيكولا برجفة صغيرة من الحذر وهي تقابل نظرات ڤانيسا المتوثّبة وترى لمحة الغضب المستتر التي سمحت أختها بإظهارها لحظة قصيرة.

ڤانيسا غاضبة... ولكن لماذا؟

- منذ متى أنتما هنا؟

سألتهما ڤانيسا ذلك بمرح لكن نيكولا فهمت فجأة، لقد ظنت ڤانيسا أن نيكولا استيقظت باكراً لكي تظفر بالسير مع دومينيكو. فڤانيسا تلاحق دومينيكو بشكل جاد بحيث باتت تكره أن تفقد لحظة تمضيها معه.

عادت إلى البيت تاركة ڤانيسا معه، فوجدت لورنزو يشرب قهوته في الغرفة الصباحية المشمسة التي تملؤها النباتات.

ابتسم لورنزو لها. بدا منهكاً ضعيفاً هذا الصباح، فقد أرهقته تماماً الإثارة التي تملكته أمس، وبدا لونه أكثر شحوباً، وعمقت التجاعيد حول عينيه. ورغم هذا رأت السعادة تفيض من ملامحه، وشعرت نيكولا بأن رؤية پول ملأته بهجة ظن أنها فارقته إلى الأبد.

- هل تعرفين خطتي لقضاء النهار؟ وهل توافقين عليها يا عزيزتي؟

اتسمت لهجته برقة وحنان بالغين، فتذكرت، مذهولة، الصورة التي كوّنتها عنه في ذهنها... تلك الصورة التي أوجدها في نفسها ابنه، زوجها. الصورتان لم تكون متطابقتين على الإطلاق. هذا الرجل الرقيق الجاد مختلف عن ذلك الأب المسيطر المستبدّ الذي وصفه پاولو لها. أتراها أخطأت الفهم أم أن پاولو كان يرى منه ناحية أخرى؟ وقالت موافقة:

- أنا متلهفة لرؤية كروم العنب، هل أنت واثق من أن ذلك لن يتعبك؟

فهز رأسه نفياً: «بل يسرني أن أريك إياها، لدينا الكثير لنتحدث عنه مع بعضنا البعض. سيقود دومينيكو السيارة، فإذا جلست أختك بجانبه في المقعد الأمامي، تمكّنت أنتِ من الجلوس بجانبي في المقعد الخلفي والإصغاء إلى ما سأخبرك به. هل ستفعلين ذلك؟».

ـ طبعاً، يا سيد لورنزو.

أخذ يدها بين يديه وتفرس فيها جاداً.

ـ ألا يمكنك أن تناديني «بابا»؟

ترددت وقد احمر وجهها فتنهد: «حسناً، لن نستعجل الأمور «فستينا ليتني»...».

ونظر إليها هازلاً وقال: «هل فهمت ما أقول؟».

هزت رأسها نفياً باسمة، فقال: «إنها حكمة لاتينية معناها «أسرع ببطء، التقدم في السن يجعل الإنسان يقدّر قيمة الوقت. الساعات تمضي بسرعة، ونحن نتلهف لجعلها بطيئة.. لهذا نتمسك بأذيالها ونجعلها تنساب ببطء الحلزون وليس باندفاع حصان السبق.

قالت برقة: «سيساعدك پول في ذلك، فالأطفال يجعلون الوقت يمّر ببطء أكثر».

وقف أنيقاً في بذلته البديعة التفصيل وقال وهو يمسك بيدها.

ـ الأطفال والنساء الجميلات.

حملتهم سيارة الليموزين الفارهة إلى الكروم، وحسب رغبة السيد فارينز، جلست نيكولا بجانبه في المقعد الخلفي بينما جلست ڤانيسا بجانب دومينيكو في المقعد الأمامي، وكانت نوافذ السيارة مفتوحة جاعلة الهواء العذب النقي يتدفق حولهم. مروا بكروم زيتون ومراع يسرح فيها الماعز فوق صخور وتلال منخفضة، ثم كروم لامتناهية من العنب.

قالت نيكولا متنهدة وهي تعبّ الهواء بعمق: «ما أحلى الهواء هنا! وكأنه معطر».

ـ معطر؟ نعم نعم. الهواء فوق التلال حلو كالعسل.

كان كلام السيد فارينز غامضاً رغم أنه تحدث بوضوح. وكانت عيناه مسمرتين على وجهها وقد قطّب جبينه.

بادلته النظر منتظرة ما سيقوله لها. وبعد لحظة صمت قال برقة: «عزيزتي، أنا اعرف ما كان عليه شعورك نحوي. كنت رجلاً أعمى وأحمق. من العدل تماماً أن تنكري عليّ صغيري. عندما سمعت عن الزواج، غضبت كثيراً مما جعلني أصاب بجلطة دماغية. هل أخبروك؟».

ـ نعم. أخبرني دومينيكو.

ـ ولا شك أنك ظننت أنه انتقام من الله!

فقالت مجفلة: «آه! لا».

فهز كتفيه: «بل هو كذلك. أنا أؤمن بهذا بشكل ما، لقد أدركت بعد ذلك أنني لا أملك ابني، وأن لا شيء في الحياة يدوم، وأن كل ما نملكه هو لله. أجسادنا وعقولنا كلها هي قرض من الله الأبدي، لقد تعلمت هذا مؤخراً إنما وبدرس شاق... وعندما اتصل دومينيكو بي ليخبرني بأن لدي حفيداً حياً، كدت أطير من الفرح، وأظن أن أنجبلينا خافت على حياتي».

ولمست نيكولا ذراعه.

ـ أنا مسرورة لاجتيازك المحنة.

فضحك متابعاً: «عندما مرت الصدمة، شعرت بلهفة جامحة لرؤية الصبي لدرجة أنني طردت ملاك الموت عن بابي بيدّي الاثنتين لأن هذه، يا عزيزتي هي فرصتي للتكفير... لقد أرسل لي الله هذا الصبي لسبب معيّن».

نظرت إليه بضيق. ماذا يعني بقوله هذا؟ ألم يخبره دومينيكو بأنها لا تنوي البقاء هنا في إيطاليا إلى الأبد؟ ورأى هو التعبير الذي بدا على وجهها، فسمّر عينيه على وجهها محاولاً قراءة أفكارها.

ـ لا أظنك ستأخذينه مني الآن.. أيامي معدودة في هذا العالم، فلن أبقى معه وقتاً طويلاً.

ـ أنا...

وخانها صوتها، ورأت دومينيكو يلتفت إليها قليلاً، فأدركت أنه أصغى إلى ما قاله لها الرجل العجوز، وأنه هو أيضاً ينتظر جوابها.

وقبل أن تجد فرصة تستجمع فيها أفكارها لتجيب، سبقتها ڤانيسا: «طبعاً ستبقى، يا سيد فارينز، وأين يجب أن يعيش پول إن لم يكن مع جده وفي بيت أبيه؟ لطالما تحدث پاولو عن «الڤيلا». ولو كان حياً لأراد أن ينشأ ابنه فيها».

اتكأ لورنزو على الوسائد خلفه وهو يتنهد طويلاً بعنف، بينما نظر دومينيكو إلى نيكولا في المرآة أمامه. قرأت توتر ملامحه. كان يعلم جيداً أن ڤانيسا لم تتحدث عنها. ربما خدعت لورينزو، ولكنها لم تخدع دومينيكو.

ـ هل صفحت عني يا عزيزتي؟

أجفلت لهمسه هذا، فالتفتت إليه باسمة وهي تقول: «نعم، لقد صفحت عنك».

ـ لقد قمنا ببداية سيئة، أنا وأنت. والآن سنبدأ من جديد، لأجل پاولو.

أومأت تقول: «نعم، لأجله».

ـ ليتني عرفت بموته منذ البداية! يحزنني جداً أن أحداً من أسرته لم يحضر الجنازة. لم يخبروني لأنني كنت مريضاً جداً. ولكن كان عليهم أن يفعلوا، فالموت يمحو كل شيء.

فقالت نيكولا ببطء: «كتب إليّ شخص ما. من كان ذاك؟».

ففكر لورنزو: «هل كانت أمك، يا دومينيكو؟».

فهز دومينيكو رأسه: «لا، ولا أنا. لا أدري من كتب لها. ماذا كان في الرسالة؟».

سكتت نيكولا لحظة قبل أن تجيب: «هذا غير مهم... لقد نسيت

بالضبط...».

نظر إليها دومينيكو في المرآة بفضول: «سبق وأن قلت هذا من قبل. يجب أن أعرف من الكاتب. من كان في البيت؟ بيانكا؟».

بدا الذهول على لورينزو: «لا يمكن أبداً أن تكتب بيانكا شيئاً بالنيابة عني».

قال دومينيكو ذلك بفتور: «لربما كتبت بالنيابة عن نفسها».

ـ أهكذا؟ ألم تكن الرسالة... مهذبة؟

ونظر لورنزو إلى نيكولا يسألها. فأجابت بقلق كارهة متمنية لو أنها لم تسأل: «ليست مهذبة جداً. ولكن هذا غير مهم. ما مضى قد مضى».

قال لورنزو بحزم: «يجب أن أسأل بيانكا عن ذلك».

فقالت نيكولا: «لا، أرجوك! ظننت أننا أصدرنا عفواً عاماً عن الماضي كله. ألا يمكن أن ينطبق هذا على بيانكا؟».

فابتسم لورنزو رغماً عنه: «أنت كريمة الأخلاق، يا عزيزتي».

التفتت ڤانيسا تنظر إلى نيكولا وقد رفعت حاجبيها بضيق. ثم قالت بعذوبة بينما عيناها تنظران إلى أختها غاضبة: «آه! إنها كريمة الأخلاق جداً. لكنني أرجو ألا تخطىء بالنسبة إلى بيانكا، يا نيكولا. فأنا خائفة جداً من كراهيتها لك».

فقطب لورنزو جبينه: «هذا ليس خبراً طيباً. كيف تجرؤ تلك الوقحة أن تقف ضدي؟».

لم تكن الدكتاتورية فيه قد دفنت بل ما زالت كامنة فيه.

تحولت السيارة الآن إلى طريق ضيقة فانتهى الموضوع ما جعل نيكولا تشعر بالارتياح. وكانوا وصلوا إلى كروم فارينز.

أصرّ لورنزو على أن يطوف بهم بنفسه رغم أن دومينيكو قدّم خدماته... إتكأ لورنزو على عصاه، ورفع رأسه «الأسدي» يتنشق

الهواء متحدياً، ثم مشى بجانب نيكولا بين عرائش العنب، وعندما توجهوا عائدين إلى المنزل عاد الإرهاق يتملك لورنزو وشحب وجهه وثقل تنفسه. ونظر دومينيكو إليه غاضباً.

ـ لقد أسرفت في السير، يا لورنزو!

فقال بكبرياء: «وهل يمكن أن ترى الكروم مع غيري؟ هذا واجبي وشرفي، إنها والدة الأسد التالي. وأنا لن أرى الصبي يبلغ سن الرشد... وعلى نيكولا، قبل ذلك، أن ترعى ميراثه في أثناء تلك السنوات، أريد أن تعرف كل شيء قدر الإمكان».

بدا دومينيكو متوتر الشفاه ضيق العينين.

ـ ألا تثق بي في هذا الأمر، يا لورنزو؟

فنظر إليه العجوز بأسف وقال: «لا أريد أن أجرحك، يا دومينيكو! ليست القضية قضية ثقة. بل رغبة قلبي...».

فقال له ببرودة: «كيف يمكن أن تجعل امرأة المسؤولة هنا؟».

ـ إنها أم حفيدي! أول من يحق له في الإرث. والذي يهمه ازدهار العمل أكثر من غيره.

ـ ولكن امرأة، يا لورنزو؟

وكان صوت دومينيكو عنيفاً: «كيف يمكنها أن تضع القرارات، وتخطط لما يأتي، وتنظم العمال؟».

فقال الرجل العجوز بضيق: «أنا لا أتحدث عن الشؤون اليومية لأن ذلك سيبقى في يدك طبعاً يا دومينيكو».

ـ ما الذي تعنيه إذن؟

كان وجه دومينيكو بارداً. وفتحت نيكولا فمها لتحتج قائلة إنها لا تريد أن يكون لها دور في العمل، لكن ڤانيسا قبضت على ذراعها بشدة حتى غرزت أظافرها في لحم أختها، فأسكتتها المفاجأة، ونظرت إلى ڤانيسا فرأت عينيها الزرقاوين تلمعان وقد تسمرتا على الرجلين. ما الذي

تهدف ڤانيسا إليه؟

وكان لورنزو يتكلم مرة أخرى بصوت متغطرس: «ستشرف نيكولا طبعاً على أعمالك، وستكون مسؤولاً أمامها عن كل ما تقوم أنت به».

أصبحت ملامح دومينيكو صارمة فجأة، ورأت نيكولا عينيه تجمدان وقد توتر فمه بشكل غاضب.

ـ أتتوقع مني أن اكون مسؤولاً أمام امرأة؟ وامرأة تجهل كل المشاكل الخاصة بهذا العمل؟ امرأة لا تعرف شيئاً عن إيطاليا؟ وعن مشاكل العمال؟ وعن الواردات والصادرات؟

كانت الكلمات تندفع لتخزها كالسهام. فاندفعت تقول بمرارة: «ما الذي جعلك تظن أنني أريد أياً من هذا؟».

انفجرت نيكولا غاضبة رغم محاولة أختها أن تسكتها مرة أخرى.

ـ أخذتما تتحدثان عني وكأنني غير موجودة! لماذا لم تسألاني؟ لو فعلتما لجعلت هذه المناقشة السخيفة غير ضرورية، فليس في نيتي قبول هذه الخطط بالنسبة لمستقبلي، أما ما سيقوم به ابني حين يبلغ سن الرشد فهذا أمر آخر. فأنا لن أبقى هنا لأدير أعمال فارينز، أو أتدخل مع بقية أفراد الأسرة في إدارتهم لها.

نظر لورنزو بألم مرّ إلى دومينيكو: «انظر ماذا فعلت! سترغمها على ترك فارينز! أم تراك ترغب في ذلك، يا دومينيكو فارينز؟».

أمسك دومينيكو بمرفق نيكولا وجرها بعيداً عن بقية المجموعة، دافعاً إياها بقوة وحشية. وعندما وصلا إلى زاوية هادئة من الكرم وقف، وترك مرفقها، فأخذت تدعك مكان يده باستياء وهي تسأله.

ـ هل عليك أن تتصرف دوماً كرجال الكهوف؟

حدّق إليها، ثم ضحك رغم غضبه.

ـ اتظنينني متهوراً أكثر مما يجب؟ هذا غريب لأن هذا رأيي فيك أيضاً.

- ماذا سيظن الآخرون بنا؟ ما كان ينبغي أن نبتعد عنهما بهذا الشكل.

دس يديه في جيبيه، ثم قال: «لديّ ما أقوله لك دون أن يسمعنا أحد».

- آه

وشعرت بالضيق والحذر.

- لا أريد منك أن تؤلمي لورنزو، يا نيكولا. هل سمعت؟ فهو لن يعيش طويلاً.

وأصبح صوته فجأة ودوداً حميماً، فنظرت إليه وهي تطرف بعينيها: «هل أنت واثق من ذلك يا دومينيكو؟».

قال باكتئاب: «لقد أكد لي طبيبه هذا».

ثم أخذ يحدق إلى العرائش الخضراء. أخذت تنظر إليه، وهي تفكر في الروعة التي يهيمن بها على محيطه وقد أمال رأسه الأسود الشعر بكبرياء.

- لكنك أول من بدأ بالجدال. أنا لا أريده أن يترك لي السلطة على مزارع فارينز، فأنا أفضل أن تبقى بين يديك.

قالت هذا بهدوء. فهز كتفيه بجيبها: «ما كان لورنزو ليتألم لذلك، يا فتاتي العزيزة! إنه يفهم كراهية الرجل للعمل تحت إمرة النساء، وكان الحديث سينتهي حبياً».

فقالت غير مصدقة: «وكيف؟».

- بالوصول إلى حل وسط، طبعاً.

وبدا العتاب في عينيه.

- إلى شيء أنت تجهلينه كلياً. لكنك اندفعت في ثورة غضب دون أن تنتظري لتري كيف سنحل المشكلة.

- وما هو الحل الوسط؟

سألته متجاهلة إغاظته لها.

- أظن أن لورنزو كان سيوافق على نوع من الوصاية يضمنا فيها معاً نحن الاثنين، فنعمل أنا وأنت بانسجام.

والتوت شفتاه بسخرية: «انسجام بطريقة ما».

استدارت تقطف ورقة شجر خضراء وقد احمر وجهها: «آه، فهمت».

- هل توافقين على ذلك؟

فترددت: «هذا يعني أنني سأبقى هنا في إيطاليا، طبعاً».

- طبعاً.

فشعرت بكراهية غريبة لإعطاء جواب نهائي.

- لا أدري...

- فكري في الأمر. أنا سأتحدث إلى لورنزو. سنترك الوضع على حاله، ولا شكّ أن الوقت سيحله.

عادا ببطء خلال أودية العرائش الخضراء. وكانت الشمس قد ارتفعت في قبة السماء وسرعان ما أخذ الضباب ينقشع عن التلال البعيدة.

وقف دومينيكو لينظر إليها، وهذا ما أرغمها على الوقوف هي أيضاً، واحمر وجهها قليلاً وهي تنظر في عينيه.

سألها لاوياً شفتيه بسخرية: «كيف كان حبك لپاولو؟».

ذهلت، وأجابت متلعثمة: «يا له من سؤال غريب!».

- حقاً؟ لا بد أنها كانت علاقة غريبة، بين پاولو وبين فتاة انكليزية صغيرة خجول. أنت لا تشبهين تلك الفتاة التي كتب لي عنها. كوّنت لك صورة في ذهني، فتاة جميلة ذات شعر أسود وعينين خضراوين متألقتين!

كان يتحدث بلهجة غريبة اتّسمت بالكسل والغضب، فقالت وهي

تتنهد: «ما زلت تكرهني».

- أنا؟ ولماذا أكرهك؟

ونظر إليها بإمعان.

- لا؟ الجميع هنا كان يكرهني. وأظنك، أنت وبيانكا، ما زلتما تكرهانني.

فقال بقوة: «أنت مخطئة، لا يمكنك أن تفهمي مشاعري، وأظنك تحاولين تجنب سؤالي. ما الذي تشعرين به عندما تفكرين في پاولو؟».

كان ثمة إلحاح في هذا السؤال الذي حيّرها.

- من الغريب أن الغموض بدأ يلفّ نظرتي إلى پاولو فغدت أكثر إبهاماً مما كانت عليه عندما كنت في انكلترا، لقد غيرني قدومي إلى إيطاليا نوعاً ما، وبات پاولو بالنسبة إليّ شخصاً مختلفاً في هذا المحيط.

فقال بحدة: «وكيف ذلك؟».

- الأشياء التي أخبرني بها عن أسرته...

وسكتت فجأة شاعرة بعدم الوفاء لزوجها الميت في هذا الحديث. وأشاحت بوجهها، قائلة:

- لا. دعنا من هذا الأمر.

وعندما عادت إلى لورنزو، نظر إليها برجاء.

- هل هدّأ دومينيكو من غضبك، يا عزيزتي؟

فضحك له دومينيكو: «كل النساء بحاجة إلى الحديث المعسول الرقيق».

حملقت نيكولا فيه رافعة الرأس.

- ليس من الحكمة أن تكشف عن طريقتك لتحقيق هدفك، يا دومينيكو، وإلاّ تنبأت بدوافعك مستقبلاً.

فضحك لورنزو مستمتعاً.

- آه! كم أحسدك يا دومينيكو لأنك شاب، وتستمتع بمعركة

الجنسين! لا سيّما مع مخلوقة جميلة مثل نيكولا...

أخذت ڤانيسا تستمع، وقد ضاقت عيناها وهي تنظر إلى أختها بصمت متجلّد، ولمّا رأت نيكولا تلك النظرة، أخذت جانب الحذر، فڤانيسا قادرة كثيراً على المكر إذا خافت على مصلحتها.

* * *

www.elromancia.com

٧ ـ هل تلين الدروع؟

كانت أول زيارة لنيكولا إلى فلورنسا رائعة بحيث لم تستطع نسيانها... في «الڤيلا» حياها ليو، الذي كان جالساً في الفناء مع غيثاره مبتسماً ابتسامة فضولية.

ـ تبدين كفتاة في حالة من التجلّي!

ـ أشعر فعلاً أنني كذلك. فقد كنت لتوّي في فلورنسا.

ـ آه!

والتمعت عيناه بسرور عميق.

ـ فلورنسا هي إحدى عجائب الدنيا السبع. مدينة العمالقة.

ـ العمالقة!

ـ عمالقة الفن، كل فناني عهد النهضة جاؤوا إلى هنا. المدينة حافلة بالجمال، ما الذي أعجبك فيها؟

قالت وهي ترتعش: «أضرحة آل ميديتشي الجوّ المحيط بها بما فيه من قدرة على وعظ الزائرين ودفعهم إلى التأمل.. لم أشعر قط بشيء كهذا من قبل».

فقال مكشراً: «هل هذا ما ستأخذينه معك عند عودتك إلى انكلترا؟ بصفته أجمل ذكرياتك عن فلورنسا؟ وعظ أضرحة آل ميدتيشي؟ ماذا عن تمثال «داود» لمايكل أنجلو؟ وماذا عن البطل «بيربوس» وماذا عن...».

ـ وماذا عن السماح لنيكولا بأن تأخذ قيلولة تريحها؟

كانت ڤانيسا تتكلم بتمهّل مهين فرمقها ليو بنظرة غاضبة.

ـ هل يضجرك الفن يا جميلتي؟

وبدا الاحتقار في عينيه: «لا بأس. لا يمكننا أن نحصل على الجمال والذكاء معاً، أليس كذلك؟».

قالت ڤانيسا متمتمة: «يُفترض بي أن أشعر بالإهانة لكن هذا لم يحصل! معظم الفنانين هم مجرد طفيليين يتخذون فنهم عذراً لكي لا يعملوا شيئاً. إنه عمل حسن إذا أنت تمكنت منه، ولكن لا تتوقع أن تحصل على الإعجاب بفضله أيضاً.

أشاح ليو عنها بإهمال وقد اكتسى وجهه الوسيم بقناع وقح، وتمتم من فوق الغيتارة: «كيف يسير الصيد معك؟».

فوجئت ڤانيسا: «الصيد؟».

ونظرت إليه متسائلة بحيرة.

ـ أنت تدلين الصنارة لتصطادي دومينيكو، أليس كذلك؟

ونظر إليها من تحت القبعة العريضة الحوافي التي يعتمرها وقد لوى شفتيه بابتسامة ساخرة.. حملقت فيه وقد توهج وجهها احمراراً. ثم استدارت على عقبيها وتوارت داخل البيت.

تحوّلت ابتسامته إلى تكشيرة واصابعه تكتسح اوتار الغيتارة بغضب: «أختك تلك ماكرة للغاية».

فأجابت: «ڤانيسا مدللة نوعاً ما، فقد اعتادت على المعجبين».

ـ ماذا تعمل؟

ـ إنها عارضة أزياء.

ـ وهل هي ناجحة؟

أومأت: «جداً».

فعاد يكشر: «فهمت! وهي تحتقر كل من لا يملك مالاً. عندما

تنسى أن تبتسم يبدو في عينها الطموح. عندما يرتاح وجه المرأة يحدث بأشياء كثيرة. ملامح ڤانيسا بالغة الرقة والحساسية، لكن نفسيتها وتفكيرها يغطيان ذلك ويظهران جمالها زائفاً متنافراً».

ـ آه، يا ليو! ڤانيسا ليست كذلك أبداً!

ـ أنا خبير بالوجوه كما على الفنان أن يكون، لقد أمضيت أوقاتي في دراستها لكي أرسمها. وأنا واثق من أنني على صواب بشأن أختك.

فقالت ببطء: «ربما وصلت إلى قسم ضئيل من الحقيقة. نعم، ڤانيسا طموح، لكن ما تبقى ليس سوى صورة كاريكاتورية عنها».

ـ لديك وجه صغير رقيق. هل تسمحين لي برسمك؟

قالت ضاحكة: «بعدما قاله دومينيكو عن دوافعك الداخلية».

ـ آه، إنه يضحك منك.

ـ أحقاً؟ لقد شككت في الواقع في أنك ذلك الدون جوان الذي وصفك به.

ضحك ليو ورقصت عيناه: «أنا أعبد حس الفكاهة الإنكليزية الذي تتمتعين به يا عزيزتي».

ـ لا تغيّر الموضوع. هل دعوتك حقيقية أم أنك تحاول أن توقعني في شباكك؟

ولوت شفتيها ساخرة.

ـ أحضري پول وسأرسمكما معاً بصفتكما «العذراء والطفل». سيسرّ لورنزو جداً وسيدفع لي مبلغاً جيداً. وسأستطيع أن أشعر أثناء الرسم بحس لذيذ من الفضيلة.

* * *

يقع محترف ليو على قمة برج مراقبة قائم بدوره على ذروة التل، ويشرف على «الڤيلا» وطريق الوادي.

ـ في القرن السادس عشر، كان من الضروري وجود برج مراقبة،

لأن العدو قادر على شنّ هجوم داهم، لم يكن آل فارينز محبوبين أكثر من آل مديتشي، رغم أننا، طبعاً، لم نصل تماماً إلى مكانتهم في السلطة. في القرون الوسطى هُزمنا في ذلك الصراع على التفوق.

أخذت نيكولا تتأمل وجه ليو بفضول، كان لمعان التصميم يلوح في عينيه، وهو يتحدث عن أسرته، وسألته: «هل أنت فخور لأنك من أسرة فارينز؟».

فكشر قائلاً: «فخور؟ وهل يمكن لأحد أن يفخر بانتسابه إلى أسرة من القتلة وقطاع الطرق؟ لقد اعتدنا، ككلِ الأسر الأخرى، أن نجمع أموالنا بطرق قذرة. وأموال من هذا النوع تلطخ اليدين».

أصرت قائلة بابتسامة تفهم: «ومع ذلك تتملكك المشاعر الشاعرية».

ـ إنك ترين أكثر مما يجب، يا عزيزتي.

أقرت بذلك وهي لا تستطيع منع نفسها من الضحك. أرادت أن تحك رقبتها وظهرها، وشعرت بثقل في رأسها جعلها تخاف، تقريباً، من أن تسقط في أي لحظة. إن الجلوس أمام الرسام ليس شيئاً بهيجاً، كما رأت بشيء من الأسى.

ـ متعبة؟

سألها ذلك وهو يتوقف عن الرسم: «بل مرهقة».

ـ أتريدين استراحة قصيرة؟

ـ سيكون هذا رائعاً.

فضحك وهو يضع الفرشاة من يده.

ـ هذا حسن، تعالي وخذي فنجان قهوة.

أخذت تتمطى وهي تكاد تصرخ لذلك الجمود الذي كان مفروضاً عليها، ثم تنهدت بارتياح: «قهوة؟ يا لها من فكرة جيدة! هل أصنعها أنا؟».

هز رأسه وهو يفتح إناءً أخرجه من سلة.

ـ لقد صنعتها قبل حضورك.

وسكب لها شيئاً من القهوة السوداء في فنجان، مضيفاً إليها بعض الحليب من زجاجة كانت في الزاوية. أخذت فنجانها شاكرة متنشقة الرائحة اللذيذة وكأنها شذا الرحيق، وسألته:

ـ هل يمكنني أن أرى ما رسمته حتى الآن؟

هز رأسه بحدة: «لا. أفضّل أن تريها بعد انتهائها، لأنك عندما ترين الصورة ستغيرين موقفك. إنني كما تعلمين لا أرسم جسمك فقط، بل أحاول أن أرسم جوهر نفسك على القماش.. رسمت مرة شخصاً بلغ به سخطه على الرسم أن توقف عن متابعة الجلوس لكي أرسمه. لم أستطع أن أرى شيئاً مما كان يفكر أو يشعر به، والشعور الوحيد الذي حصلت عليه هو هذه السحابة الكبيرة السوداء من الغضب الهائج بيننا».

ـ إذن فقد رسمت ذلك؟

سألته ذلك مازحة فضحك وهو ينقف خدها بإصبعه: «بإمكانك أن تكوني ماكرة للغاية، يا نيكولا. نعم، لقد رسمت ذلك».

رفعت أهدابها فجأة ونظرت إليه بدهاء: «هل كان ذلك دومينيكو؟».

رفع حاجبيه بذهول وهزل: «نعم. إنه هو! كيف تكهنت بذلك؟».

ـ من موقفه معك. إنني أتساءل عما رأيته ليجعله بذلك الغضب.

هز كتفيه: «يا عزيزتي... أنا لا أفهم نفسي. عندما أرسم أترجم ما أراه دون وعي مني... فأنا أرسم غريزياً فقط».

ـ ومهما كان ما أغضب دومينيكو، فهو شيء رأيته بعيني، لكنني لم أفهمه بعقلي، وقد رأى هو ذلك وشعر...

ورفع ليو يديه مكشراً.

ـ ماذا اقول؟ شعر بنفسه عارياً؟

وعندما عادت نيكولا إلى البيت فيما بعد، كانت تفكر.. نظرت إلى الخلف فرأت ليو في نافذة محترفه القائم في قمة البرج، مرتدياً قميصاً أسود ملطخاً بمختلف الألوان، فقد اعتاد أن يمسح الفرشاة بصدره. رفع يده يشير بالتحية. رأته، لحظة، أشبه بساحر في حكاية خرافية يقف في نافذة البرج يجمع السحب.

تحيط بليو هالة من الخطر. ترى ما الذي رآه في وجه دومينيكو؟

* * *

اعترض دومينيكو بشدة عندما عرض ليو في البداية فكرة رسم نيكولا وبول بصفة «العذراء والطفل»، فقد أظلم وجهه بالغضب قائلاً إنها فكرة مضحكة، وقال للورنزو:

ـ لا يستطيع ليو أن يرسم موضوعاً كهذا دون أن يكفر.

وكان الرجل العجوز يتفحص ليو برزانة: «أتظن أنه بإمكانك القيام بذلك يا ليو؟ أتظنه سيكون جيداً؟».

وللمرة الأولى يبدو الجدّ على وجه ليو وهو يمد يديه بأصابع ثابتة.

ـ هذا ما أشعر به يا لورنزو. أنا واثق بأن هذا ما عليّ أن أفعله.

وضحك دومينيكو بخشونة.

ـ هذا كلام مسرحي فارغ. كان يجب أن تكون ممثلاً يا ليو، لقد فاتتك المهنة.

فنظر إليه لورنزو يلومه مستغرباً.

ـ دومينيكو! إن ليو موهوب وإذا كان جاداً في رسم هذه اللوحة، فسنعلقها على جدراننا.

قال دومينيكو بجمود: «طبعاً. إذا كان هذا يرضيك، يا لورنزو، لم يبق هناك ما يُقال، افعل ما تشاء».

وهنا قررت نيكولا أن تتدخل كواسطة سلام بينهم. فقالت بمرح وهي تنظر إلى لورنزو: «سواء جاءت الصورة جيدة أم لا، فستكون

مصدر بهجة. وأنا وبول سنفرح بها كثيراً. لم يرسمني أحد من قبل، وسيكون في هذا خبرة جديدة لي».

لوى دومينيكو شفتيه متهكماً: «آه، هذا دون شك، ما ستكون اللوحة عليه».

وفيما بعد، حين وجدته في الفناء وحده قبل العشاء تطرقت إلى الموضوع مرة أخرى، وإذا بها تراه ما زال معارضاً، فقالت بارتباك:

ـ لا أرى في ذلك أي ضرر.

نظر إليها بحذر: «يبدو أن زواجك تركك بريئة بشكل غريب».

احمر وجهها وقالت: «وما علاقة زواجي بهذا الرسم؟».

أجابها باقتضاب: «ليست صورتك فقط ما يهدف إليه ليو».

ـ آه!

ثم سكتت لحظة قالت بعدها.

ـ حسناً، أنا أعرف سمعته طبعاً، لكنني امرأة راشدة كما تعلم. وقد بقيت سنوات مسؤولة عن نفسي... فأنا أعرف كيف أواجه أساليب الرجال. لقد حاول الرجال معي في الماضي كل أنواع الطرق وأنا أعرف كيف أتصرف إزاء كل حالة.

وضحكت له عيناها الخضراوان: «وعلى ليو، لكي يستطيع أن يخدعني، أن يكون بالغ المهارة والخبرة».

ـ آه! هل سيتمكن من ذلك؟

وبدا صوته غريباً، وحدّق إليها بعينين ضيقتين. وقبل أن تدرك ما سيفعل أمسك بمعصميها وجذبها إليه، ففقدت توازنها وارتمت عليه وهي تحاول أن تتخلص من قبضته.

ـ لا تكن سخيفاً. دعني أذهب.

صرخت بذلك غاضبة. ولكنه انحنى إليها. ورغم تململها ومقاومتها، استطاع أن يعانقها.

شعرت بسعادة عذبة تغرقها، ولم تفارقها المفاجأة حتى بعدما أفلتها. ثم وقف دومينيكو ووضع يديه في جيبيه.

ـ ماذا كنت تقولين؟

حملقت إليه بغضب لإثارته لها بعناق لم يعنِ به شيئاً. كيف جرؤ على هذا العمل؟ أجابت بصوت لاذع:

ـ نعم، القوة الوحشية أسلوب من الصعب مواجهته، لكن ليو ليس من النوع المتوحش. إنه، بعكسك، يستعمل الإقناع وليس القوة.

وسرّها أن تجد لوناً قاتماً يكسو وجهه. لقد تمكنت، على الأقل، من أن تخزه!

* * *

عندما وصلت إلى الڤيلا، بعد خروجها من برج ليو، وجدت لورنزو وبول معاً في الحديقة، يتقاذفان كرة. وتأثرت جداً للسعادة الصافية العميقة التي رأتها في وجه الرجل العجوز المغضن الذي يستمتع بصحبة حفيده المحبوب.

ـ أنا ذاهبة لأغيّر ملابسي قبل الغداء.

كانت ترتدي أحد أثواب ڤانيسا لأنّ ليو أراد منها أن ترتدي اللون الأزرق وأن يكون الثوب غاية في البساطة لكي يؤدي الغرض المنشود.

في الردهة المنعشة الجوّ وجدت دومينيكو يتحدث إلى أنجلينا وأحد الخدم. ثم صرفهما بإيماءة من رأسه والتفت ينظر إليها يقيسها بنظراته ما جعلها ترفع رأسها تحدياً.

ـ كيف يسير الرسم؟

كان السؤال عادياً لاضرر منه لكنها أدركت أنه يريد إثارة غضبها، فأجابت بالبرودة نفسها: «جيداً جداً».

تفحصتها نظراته من الرأس إلى أخمص القدمين: «هذا الثوب لا يجعلك تبدين كالعذراء تماماً».

ـ إنه اللون المناسب، وهذا كل ما يريده ليو.

قال بسخرية: «كل ما يريده؟».

رفعت عينين بريئتين إلى وجهه: «نعم».

قالت ذلك برقة، ثم استدارت لتصعد السلم.

أمسك بمرفقها فنظرت حولها. كان وجهه متشككاً بشكل غريب.

قال بصوت أبح: «نيكولا».

بدا وكأن قلبها توقف عن الخفقان، ثم تسارعت نبضاته تاركاً إياها شاحبة مرتجفة. ثم اجابت هامسة: «نعم؟».

بدّد وقع الحذاء على البلاط السحر بينهما فترك مرفقها. واندفعت تصعد السلم عمياء عن أي شيء آخر دونما التفوه بأي كلمة. وعندما انعطفت في أول فسحة للسلالم لمحت بيانكا تنظر في أنحاء الفناء، أما دومينيكو فقد اختفى.

بدّلت نيكولا ملابسها بأصابع مرتجفة. وكانت تزرّر ثوبها عندما رنّ جرس الغداء. ألقت على المرآة نظرة خاطفة ثم هرعت نحو الباب. وما إن وصلت إليه حتى انفتح وابتسمت لها ڤيوليتا الطاهية بخجل. إنها امرأة بدينة بشوشة في الخمسين، ذات شعر تخلله الشيب. قالت لاهثة:

ـ سيدتي. غداً عيد ميلاد أخي، ولا أدري إذا كنت تسمحين لي بأن أعدّ غداءً بارداً قبل أن أذهب وبذلك أغيب النهار كله؟

وافقت نيكولا بحرارة: «طبعاً».

كانت قد استلمت بعض المهام من السيدة فارينز، وبقيت عدة أيام تعطي أوامرها للطاهية. واصرت العمة فرنسيسكا أن تختار نيكولا قائمة الطعام لأنها تعلمت هذه المهنة، وإذ سرّها أن تقدم العون، حاولت أن تتصرّف بلياقة مع الطاهية التي تعمل في «القيلا» منذ مدة طويلة، وفجأة، خطر لنيكولا فكرة ملأتها سروراً، فقالت للطاهية:

ـ الأفضل ألا تفعلي شيئاً يوم عيد ميلاد أخيك. وبهذا تغادرين

القيلا الليلة. عطّلي غداً النهار بطوله. سأتولّى الطهو بنفسي.

استدارت عينا ڤيوليتا ذهولاً، وقالت مستنكرة: «أنت يا سيدتي؟ هذا غير مناسب».

ـ لِمَ لا؟ أنا طاهية! لست خبيرة بالطعام الإيطالي ولكن بإمكاني أن أطهو طعاماً مقبولاً للعائلة هذه المرة فقط.

وارتجفت شفتا ڤيوليتا: «هل ستقومين بعملي، يا سيدتي؟».

أدركت نيكولا فجأة أن ڤيوليتا تخاف أن تخسر وظيفتها في القيلا. فضحكت وربتت على يد المرأة تطمئنها.

ـ آه! لا يمكنني أن أقوم بعملك لأكثر من يوم واحد، يا ڤيوليتا إن وظيفتك آمنة تماماً فلا تخافي.

فتنهدت فيوليتا بارتياح:

ـ إذن، شكراً لك يا سيدتي. سأكون شاكرة للذهاب الليلة. فنادراً ما أرى أسرتي وهذه الحفلة ستجمع الأسرة كلها.

وتحوّلت لتذهب وهي تنحني احتراماً، وبعد ذلك ألقت نظرة أخيرة على غرفتها لتتأكد من أنها لم تترك شيئاً، ثم تبعتها في الوقت نفسه الذي أخذت تسمع فيه خليطاً غريباً من الأصوات ميزّت من بينها صرخة عنيفة بالإيطالية ثم صوت ارتطام تبعته أصوات اصطدام وخبط عنيف ممزوج بصوت تقاذف كرة.

ركضت إلى السلم. كانت ڤيوليتا ممدّدة في أسفل السلم وتنورتها تتطاير، وفي الوقت الذي وصلت فيه نيكولا إليها، اجتمع حولها بقية سكان المنزل. كانت ڤيوليتا شاحبة الوجه من الألم، فأخذ دومينيكو يفحصها جيداً حيث جلست على الأرض الرخامية، ثم قال متجهم الوجه إنها كسرت ذراعها، فركضت نيكولا بجانبها:

ـ كسرت ذراعها. مسكينة ڤيوليتا. علينا استدعاء الطبيب حالاً.

قال دومينيكو: «بل المستشفى. سأقلّها في سيارتي أذ يجب تجبير

الذراع».

فتأوهت فيوليتا: «لكن الألم...».

قالت نيكولا: «الرحلة في السيارة ستؤلمها جداً. ألا يمكن أن يأتي الطبيب ليعطيها حقنة تهدىء ألمها قبل أخذها إلى المستشفى».

توجّه دومينيكو إلى الهاتف حيث تحدث بهدوء ثم عاد: «خرج الطبيب لحالة مرضية. ليس أمامنا سوى نقلها إلى قلورنسا حالاً».

قالت نيكولا بسرعة: «وسائد، نريد وسائد لنسند ذراعها».

ثم ركضت تبحث عن بعض منها، وعندما عادت وجدت دومينيكو يحمل كوباً من ماء الزهر ذوّب فيه قرصاً مهدئاً قدمه لفيوليتا.

قالت نيكولا تهنئه: «فكرة جيدة، هذا يساعدها».

خرجت لتضع الوسائد في سيارة دومينيكو، بينما وقف لورنزو وڤانيسا وبيانكا يتفرجون على ما يجري.. كانت ڤانيسا تكره كل مظاهر المرض أو الألم. وكان وجهها شاحباً.

وعندما عادت نيكولا إلى الردهة، قال لها دومينيكو:

ـ دعيها تستريح قليلاً قبل أن نحاول تحريكها.

تكلّم بالانكليزية كيلا تفهم ڤيوليتا.

وفعلاً بدا التحسن على فيوليتا. وعاد اللون إليها قليلاً، وخف توتر الألم من ملامحها.

قال دومينيكو وهو ينظر إلى السلم: «كيف حدث ذلك؟ ما الذي جعلها تسقط؟».

ـ لا بد أن تلك هي السبب.

قالت بيانكا هذا وهي تشير إلى كرة پول الحمراء، التي كانت في زاوية الردهة.

ـ رأيتها تتدحرج على السلالم عندما ركضت خارجة من غرفتي، ولا بد أن ڤيوليتا سقطت فوقها.

ورمقت نيكولا بنظرة كئيبة.

قالت نيكولا بتعاسة: «لقد سمعت صوت الكرة عندما سقطت ڤيوليتا. أنا آسفة جداً. إذا كان هذا ذنب پول، فسأتحدث إليه وأجعله يعلم ويرى كم هي خطرة».

ارتفع صوت لورنزو بخشونة، دون أن ينظر إلى بيانكا: «ربما ليس پول من وضع الكرة على السلالم، لقد دخلت معه ورأيت أنجيلينا تأخذه إلى الطابق الأعلى. وقد وضعت أنا الكرة بنفسي على المنضدة هناك».

ـ لا بد أن پول عاد مرة أخرى لأخذها.

قالت بيانكا هذا بصوت حاد مرتفع وقد بدا عليها الشحوب فجأة.

ـ ما كانت أنجيلينا لتسمح لپول قط بأن يصعد السلم أو ينزله من دونها. هذا مستحيل.

قالت بيانكا بعد أن أخذت نفساً ممزقاً: «لا، حسناً، إنه... ربما الكرة ليست سبب ذلك إذن. ربما انزلقت ڤيوليتا من نفسها...».

رفعت ڤيوليتا رأسها بضعف، وقالت ناظرة إلى لورنزو: «بل الكرة هي السبب. كانت في الظل فلم أرها».

قال لورنزو بصوت ثقيل آسف:

ـ لم يكن في الطابق الأعلى سوى نيكولا.

نظرت نيكولا إليه ذاهلة: «لم أترك الكرة على السلم! ما الذي يجعلني أفعل ذلك؟».

فمال لورنزو برأسه جانباً: «هذا صحيح يا عزيزتي، ما الذي يجعل أي شخص يترك كرة على السلالم متعمداً لكي يتعثر بها شخص ما؟».

* * *

٨ ـ الحقيقة التي يكرهها الناس

اصطحب دومينيكو ونيكولا ڤيوليتا إلى فلورنسا حالما هدأ ألمها، ومع ذلك جلست نيكولا بجانبها في الخلف تخفف من ألمها بلطف. ولكن ڤيوليتا، أخذت تتأوه كلما ارتطمت السيارة بشيء ما.

كانت الطرق المنحدرة من التلال إلى فلورنسا قديمة غير ممهدة تماماً ما جعل تألم ڤيوليتا شيئاً لا مناص منه. شعر الجميع بالارتياح عندما تسلمها الطبيب في المستشفى، فلم تكن إصاباتها سيئة للغاية، فليس لديها إصابات إلا في ذراعها، وعندما أصرّت على الذهاب إلى بيتها من المستشفى في الوقت المناسب لأجل عيد ميلاد اخيها، ترك دومينيكو تعليمات في مكتب سيارات الأجرة أن يرسلوا سيارة تقلّها إلى بيتها.

في طريق العودة إلى الڤيلا، جلست نيكولا في مقعدها صامتة. عجزت عن التصور، ، حتى الآن، أن هناك من وضع الكرة عمداً على السلالم لتسبب حادثاً. ولكن، كما قال لورنزو، ما هو البديل لهذه الفكرة؟ من غير الممكن أن تقفز الكرة وحدها على السلالم لكي تقف في الظلام. . . لا بدّ أن أحداً وضعها هناك، لكن من؟

عرفت الجواب مسبقاً طبعاً. إنها بيانكا. فقد فضحت الفتاة نفسها في كل نظرة، وكل كلمة.

لماذا فعلت ذلك؟ ارتجفت نيكولا وهي تتصور ما كان ليحصل من

جرّاء حادث مماثل. من حسن الحظ أن ڤيوليتا كسرت ذراعها فقط، فقد كان من المحتمل أن تتكسر أضلاعها.

لم يقل لورنزو المزيد، ثم استدار عائداً إلى غرفة الطعام. أمّا ڤانيسا، التي اتسعت عيناها فضولاً، فألقت على أختها نظرة طويلة متسائلة، ثم تبعت الرجل العجوز. ما الذي حدث لبيانكا؟ لم تستطع نيكولا أن تتذكر، لقد منعها الذهول من أن تلاحظ. كان عقلها مشغولاً بمحاولة فهم ما جرى، وكل ما يتضمنه.

أوقف دومينيكو السيارة فجأة في ناحية من الطريق ونظرت إليه متسائلة:

ـ لماذا أوقفت السيارة؟

ـ كلانا بحاجة إلى شراب.

عند ذلك أدركت أنهما توقفا أمام نزل. . ترجّلت من السيارة متصلبة الجسم وتبعته في مدخل معتم. جاء صاحب النزل وهو يمسح يديه بمئزر أبيض ثم ابتسم لهما:

ـ مساء الخير، ماذا تأمران؟

تحدث دومينيكو إليه بالإيطالية باسماً. فأومأ الرجل ثم توارى ليعود بعد ذلك بكوبين من العصير البارد.

جلست إلى مائدة بقرب الباب المفتوح. كانت أشجار السرو تلقي بظلال عميقة على الطريق الأبيض الترابي، بينما هديل حمام يتناهى إلى مسامعهما من مكان ما. .

أخذ دومينيكو يحتسي شرابه جامد الملامح. بينما أخذت هي تتساءل، وهي ترشف شرابها، عما إذا كان غاضباً منها، ولماذا؟ هل من الممكن أنه اعتقد بأنها تركت الكرة على السلم؟

قال فجأة: «علينا أن نبحث عمن يطهو الطعام. سأطلب من أنجيلينا أن تعثر لنا على طاهية».

فسألته: «لِمَ ليس أنا؟».

نظر إليها ذاهلاً: «أنت؟».

ابتسمت: «هل نسيت أنني طاهية؟ يسرني أن أقوم بالطهو لفترة. ويمكنني أن انشّط معلوماتي عن وصفات الطهو الإيطالية».

ـ هذا أمر سخيف، لا سبيل إلى البحث فيه.

تصلب ظهرها: «لماذا؟».

أجاب بحدة: «لماذا؟ أنت فرد من الأسرة ولست خادمة».

ردت عليه بالحدة نفسها: «أنا طاهية محترفة. لا أراك تظن أن لورنزو سيعترض، أليس كذلك؟ لم يمانع في أن يرسم ليو صورتي، فلماذا يمانع في أن أطهو له عشاءه؟».

ـ هذا أمر مختلف.

ـ لا أرى أي فرق.

قال ببرودة: «لا بد أنك عمياء إذن».

ـ فسّر لي الأمر إذن. دعني أفهم.

قالت له بلهجة تماثل لهجته سخرية.

ـ ستُجرح كرامة لورنزو... أنت أم حفيده، فإذا سمع الناس أنك عملت كطاهية في المطبخ، فسيشعر بالخزي.

ـ لكن هذا شيء سخيف!

فهز كتفيه: «ربما».

فقالت بغضب: «لكن هذه فكرة قديمة بالية».

فنظر إليها ببرودة: «هذا رأيك أنت. وأنت لست رجلاً عجوزاً مزهواً يتعلق بلهفة بآخر بقايا أمجاد أسرته».

فقالت بتصميم هادىء: «سوف نرى. سأتحدث إلى لورنزو بنفسي وأظنني قادرة على إقناعه».

فضحك: «أنت تقريباً، قصيرة النظر مثله. أليس كذلك؟».

ـ ماذا؟ لا أفهمك.

فتمتم بصوت خافت: «معك حق. أنت لا تفهمينني».

* * *

صُعق لورنزو في البداية، وتملكه الذعر، ولكن بعد أن أخذت تتضرع إليه وتلاطفه بالحيلة والصبر، خف جرح كرامته.

ـ ولكن، يا عزيزتي، ليس من الصواب أن تعملي في بيتي خادمة بينما أنت سيدة البيت الحقيقية.

فابتسمت بدهاء: «إذا كنت أنا سيدة البيت الحقيقية فعلاً، يحق لي إذن أن أفعل ما أشاء، يا لورنزو، ويسرني أن أطهو لك ولپول، فأنا أحب الطهو. من الصعب أن أشرح لك ذلك، لكنه يرضي شيئاً في أعماقي».

فأومأ الرجل بإدراك.

ـ لأنك امرأة، ومن الطبيعي أن ترغبي بتحضير الطعام لأسرتك. آه! يا عزيزتي. لقد فهمت الآن، والآن، متى ستناديننني «بابا» يا ابنتي؟

سألها هذا بالدهاء نفسه فأجابت ضاحكة له: «عندما أطهو لك في مطبخي، يا «بابا»».

ألقى رأسه إلى الخلف وضحك مستمتعاً.

ـ أنت أنثى كاملة. ما أشد ندمي على تلك السنوات التي رفضتك فيها بسبب حماقتي.

لمع شعرها الأسود وهي تحني رأسها تقبل وجنته المغضنة.

ـ لا تندم أبداً، يا «بابا» ودعنا نبتهج الآن بما لدينا.

نظر إليها بسرور عميق، معجباً باستدارة فمها وخديها، وبشرتها المسمّرة التي تنضح شباباً، وبياض عنقها وعينيها الخضراوين الباسمتين.

ـ يا عزيزتي، يجب أن تتزوجي مرة أخرى. فمن المؤسف أن

www.elromancia.com

تضيّعي مثل هذا الجمال على طفل ورجل عجوز. فأنت خلقت للحب.

احمر وجه نيكولا، ثم ضحكت:

ـ ما زال أمامي وقت كاف لذلك. فأنا لم اتجاوز فترة الصبا بعد.

نظر إليها بقلق: «ألن تخطئي وتحبي ليو؟ إنه رجل مرح وظريف، لكنه ليس جاداً تماماً بالنسبة إليك يا عزيزتي».

قالت برقة: «ليو صديقي. ما أشعر به نحوه هو المودة فقط».

ـ هذا حسن. ذلك يطمئنني لأنني كنت قلقاً بهذا الشأن. لقد تحدث دومينيكو إليّ يحذرني ألا أسمح لليو بأن يراك كثيراً...

ـ آه! لقد فعل هذا، أليس كذلك؟

كانت لهجتها ساخطة وعيناها تنفثان لهباً، فنظر إليها لورنزو بشكل عفوي، ولوى فمه باسماً مسترخياً: «هكذا... هكذا إذن...».

نبهتها لهجته، ونظرت إليه فجأة بحذر. ما الذي يعنيه بهذا التعبير؟ أخذت تتساءل عن ذلك لكن نظرتها المتفحصة لم تستطع أن تقرأ أفكاره.

* * *

عمّ الذعر والدهشة عندما اكتشف سكان المنزل أن لورنزو سمح لنيكولا بأن تستلم الطهو وقالت ڤانيسا مظهرة اشمئزازها:

ـ هل أنت مجنونة، يا حلوتي؟ أظن أنّ الفكرة هي أن تجعلي العجوز ينسى أنك طاهية. والآن سيحتقرك بلا ريب لأنك عرضت عليه العمل في المطبخ. سيفكر في أن ذلك هو مكانك الحقيقي. وهذا ما سيظنه الآخرون كلا بل هذا ما سيقولونه بصوت مرتفع.

فضحكت نيكولا: «أتعنين بيانكا؟».

أجابت ڤانيسا بغضب بالغ:

ـ ومن غيرها؟ إنها تفقدني صوابي، ففي معظم الوقت، تنظر إليّ وكأنها لا تراني، وإذا لحظتني مرة، يبدو عليها التكبر. يا لها من فتاة

مزعجة! مكانك لما أعطيتها سبباً يجعلها تسخر منا.

ـ لماذا تهتمين بها؟ إنها صغيرة جداً وحمقاء. وأظن أنها وراء تلك الغطرسة، تخفي عدم ثقة بنفسها.

ـ لا بد أنك تمزحين.

قالت نيكولا ضاحكة بخشونة: «بل أنا جادة يا «ڤان».

ـ لا أريد منك أن تدعيني بهذا الاسم. تعلمين أنني أكرهه.

ـ آسفة. سأحاول أن أتذكر. لكن عادات الطفولة لا تموت بسهولة، فقد كنت دوماً أدعوك ڤان عندما كنا صغيرتين. ألا تتذكرين؟

قالت أختها بحدة: «طبعاً أتذكر. وكنت دوماً أمنعك من استعمال ذلك اللقب الطفولي السخيف، لكنك حتى الآن لم تتخلّي عن عنادك».

ـ أنا لا أقصد أن أكون عنيدة. كل ما في الأمر أنني أعشق الطبخ. وعندما لا أقوم بشيء، أشعر بأنني عديمة النفع.

ـ لديك وقت لپول الآن، وهذا ليس عدم نفع، أليس كذلك؟

ـ لدى پول أنجيلينا تخدمه. أنا الآن أراه أكثر مما اعتدت من قبل، لكن أنجيلينا تقوم بكل العمل، أنا ألعب معه فقط.

تأوهت ڤانيسا: «أنا أستسلم. تتكلمين وكأن العمل مقدس».

فضحكت نيكولا: «وهذا ما أظنه أنا. إننا أشبه بالآلات، إذا لم نعمل بانتظام نصدأ ونتلف».

فقالت ڤانيسا وهي تنظر برضا إلى ساقيها الطويلتين.

ـ أنا لا أصدأ. فأنا أستمتع هنا بشكل لم أستمتع به من قبل... حمام شمسي، قراءة مجلات، استرخاء... إنها أجمل عطلة في حياتي. أما أنت فالمرة الوحيدة التي جلست فيها أكثر من دقيقتين هي عندما رسمك ليو. إن رضيت بأن تجلسي في المطبخ طيلة النهار، فكيف له أن يرسمك؟

ونظرت إليها ببرودة.

ـ سيكون عليه أن يرسمك بدلاً مني. وعلى كل حال، منذ جئنا إلى هنا ونحن نسمع عن صلاحية شكلك للرسم يا ڤانيسا.

احمر وجه ڤانيسا بغضب وحملقت في أختها بعنف:

ـ أجلس ليرسمني ليو؟ أفضّل أن أطهو على أن أفعل ذلك.

ـ يا إلهي... قدر أسوأ من الموت!

وكان هذا صوت ليو الساخر فاستدارت ڤانيسا وقد توهج وجهها.

ـ ألا تعرف المثل القائل: «مسترقو السمع يسمعون ما لا يرضيهم؟».

ـ هذا مثل مبتذل، يا لعقلك المحدود!

تحيّرت نيكولا للقسوة البادية في صوته. هل يكره ليو ڤانيسا حقاً إلى هذا الحد؟ ونظرت إلى أختها بتعاسة. هل أجفلت أختها بسبب كلمات ليو أم أنها تخيّلت ذلك؟

ابتسمت ڤانيسا ابتسامة صغيرة متألقة قاسية: «عقلي ليس صغيراً بحيث لا أرى ألاعيبك يا مايكل أنجلو. نيكولا ستكون فاحشة الثراء عندما يموت لورنزو».

ضاقت عينا ليو بسخرية، ثم قال بتحفظ ورصانة غريبة: «أظنك أخطأت فهم الوضع، يا عزيزتي.. كل شيء هو باسم پول، ونيكولا هي مجرد وصية، وأعتقد أن العزيز دومينيكو كذلك».

ـ ولكن أي رجل يتزوجها سيتمكن من تسليط السوط على رأس دومينيكو.

ـ ولماذا يفعل ذلك؟

قال ذلك مصطنعاً الدهشة.

ـ لا بدّ أن هذا ما ترغب فيه أليس كذلك؟

قالت ڤانيسا هذا بنظرة طويلة باسمة، فانحنى هازئاً: «ما أمهرك في قراءة أفكاري! حتى ليظن المرء أن تفكيرنا متشابه».

ساد صمت استدارت بعده على عقبيها وغادرت الغرفة صافقة الباب خلفها. فقالت نيكولا وقد أزعجها ما حدث:

ـ هل كان يجب أن تغيظها بهذا الشكل يا ليو؟ ڤانيسا لا تعرف المزاح مع الأسف. قد تبدو مرحة لكنها تأخذ الحياة بجد.

ـ بجد؟

وضحك.

ـ أرجوك يا عزيزتي، لا تجعليني أضحك كثيراً لأن هذا يضرّ بالصحة.

ـ لا أظنك تفهم ڤانيسا. إنها تريد الكثير من الحياة.

ـ المال؟ الملابس؟ الحفلات؟ لقد لاحظت هذا.

وبدا صوته هازئاً ببرودة وقد لاحت المرارة على شفتيه.

ـ ليس من الصعب فهمها، يا عزيزتي.

ـ هل سألت نفسك لماذا تريد مثل هذه الأمور؟ لأنها عندما كانت صغيرة، صُدمت بأول رجل أحبته. كان قاسياً أنانياً. بعد ذلك صممت ڤانيسا على النجاح لكي تكون آمنة. لم تتحدث معي قط عن ذلك، لكنني رأيت التغيّر في شخصيتها. كانت مرحة على الدوام ومولعة بالضحك والتسلية، ولكن بعد انفصام علاقتهما، أصبحت تظن أن المال يحلّ كل شيء.

ـ أتحبينها كثيراً؟

ـ إنها أختي. تحيّرني أحياناً، لكن أمرها يهمني.

ـ وبكلمة أخرى، أنت تحبينها، لكنها غالباً ما تتجاهلك عندما تحاولين إظهار ذلك.

قال ذلك ضاحكاً فتنهدت: «هذه هي المسألة تقريباً. نعم. ڤانيسا لا تحب إظهار المشاعر».

أومأ ليو برأسه. ثم سألها بعد لحظة: «ما هذا الذي سمعته عن

استلامك الطهو في المطبخ. هل هذا صحيح؟».

- نعم، هذا صحيح.

- ولكن ماذا عن اللوحة التي أرسمها؟ كيف سأنهيها؟

فقالت ببساطة: «سأتفرغ لك ساعة أو أكثر أثناء الصباح.. سأحتاج إلى يوم أو يومين لأعتاد على المطبخ، لكنني سأجد بعد ذلك وقتاً دون شك للجلوس أمامك».

فكشر قائلاً: «تجعلينني أبدو وكأنني طبيب أسنان! لقد تعبت في هذه الصورة وهي هامة لي».

- أهم من الطعام؟

فضحك: «أنت نسيت أنني أطبخ طعامي بنفسي. لديّ مطبخ عصري في البرج».

سألته بفضول: «ماذا تطبخ؟ لا أتصورك نابغة في الطبخ».

فقال بتواضع: «بل أنا متفوق في ذلك. أصنع معكرونة ممتازة وسلطة لذيذة طازجة. كما أعدّ صلصة بندورة ولحم بقر رائع».

- هذا جميل جداً، ماذا أيضاً؟

قالت هذا ضاحكة.

- ماذا أيضاً؟ وهل غير هذا ضروري؟

وبدا أنه جُرح.

- معكرونة وسلطة... مواد الحياة الأساسية، أنا أعيش كالملك.

نظرت إليه مؤنبة: «هممم... لقد لاحظت هذا. أخبرني يا ليو، هل تبيع رسومك؟».

فرقصت عيناه: «يا لك من امرأة مشككة. نعم، أبيع المثير منها».

- هل يدفعون فيها ثمناً جيداً؟

- هل تتحدثين عن دخلي لأجل جامعي ضرائب الدخل أم الأمر اهتمام شخصي؟

- آسفة لقلة أدبي. كنت مهتمة شخصياً فقط.

- لماذا؟

فهزت كتفيها: «لماذا؟ مجرد فضول واهتمام بأمرك. إذ من المؤلم أن يرسم الرسام صوراً لا يشتريها أحد. وأنا مسرورة لأنك تبيعها».

نظر إليها مائلاً برأسه إلى جانب، ثم تمتم: «نيكولا... هل تشعرين نحوي... حسناً، كيف أقولها، باهتمام؟».

ضحكت للتعبير الذي بدا على ملامحه: «مسكين يا ليو، هل شعرت فجأة بأنفاس شخص خلفك يلاحقك؟ لا. أنا لا ألاحقك فأرح نفسك. إن اهتمامي بك أخويّ كاهتمامي بڤانيسا».

قال ضاحكاً: «حسناً، لا أدري إن كان كلامك هذا مجاملة لي، لكنني أقبله وأقول لك جاداً، يا نيكولا، أنا مسرور لأننا، أنا وأنت، صديقان. أكره أن أجرحك، لكنني لم أعتبرك قط أكثر من ذلك».

- وأنا كذلك.

- وكذلك بإمكاننا أن ننسى هذا. أليس كذلك؟

أحنى رأسه وطبع قبلة على خدها، وعندما رفع رأسه ابتسم لها.

- حلوة... حلوة أنت يا نيكولا وأنا مسرور لقدومك إلى الڤيلا.

وعندما افترقا، لمحت نيكولا بيانكا في الفناء تنظر إليهما باهتمام وملامح جامدة. وعندما تقابلت أعينهما احمر وجه الفتاة، ثم استدارت وأسرعت مبتعدة.

تناولا ذلك المساء عشاءً بسيطاً مؤلفاً من حساء وسلطة مؤلفة من خليط من الخضار وقالب أرز فوقه صلصة بيضاء.

وفي الصباح التالي بدأت نيكولا العمل بجد، فانكبّت على كتب الطهو مدة ساعة قبل أن تقرر ما هي الوجبات المختلفة التي ستطهوها في الأيام القليلة المقبلة.

وفي الصباح الثالث، شعرت بأن بإمكانها أن تترك المطبخ لساعة أو

www.elromancia.com

اثنتين في الصباح ليتسنى لها الجلوس أمام ليو ليرسمها. كان اليومان الأولان لها كطاهية، ناجحين تماماً، قدمت فيهما «إسكالوب» ومعكرونة بصلصة مؤلفة من بندورة وفطر ولحم بقر وأعشاب، ولقي طعامها نجاحاً ما جعلها تشعر بتحقيق الذات.

أخذت تفكر، وهي تجتاز المروج الخضراء متجهة نحو البرج، في أن طبق المعكرونة مطلوب أكثر من غيره. سهولة صنعه جعلته ضرورياً، وليس من شخص ايطالي لا يعرف كيف يطهوه. يمكنها أن تخفي أي سهو أثناء طهو أي نوع من الطعام، لكنها لا تستطيع ذلك في طبق المعكرونة، وقد سرّها قول لورنزو:

ـ والآن، هل يمكننا أن نحصل على طعام إنكليزي، يا عزيزتي؟ مثل لحم بقر غير ناضج تماماً وحلوى مشبعة بالماء؟

ضحكته الأنيسة سرتها، بالرغم من الإهانة التي وجهها إلى طبق الطعام الوطني في بلدها. وقالت مازحة: «إذا شئت أن تتذوق بعض الأطعمة الانكليزية، يسرني جداً أن أطهوها لك، يا «بابا»».

تجاوب الجميع مع تعمدها لفظ ذلك الاسم، فجسم بيانكا تصلب ورمقتها بنظرة خاطفة، ودومينيكو رفع رأسه وضاقت عيناه. وليو ابتسم ابتسامة عريضة، وكانوا دعوه خصيصاً لهذه الوجبة، وغمز بعينه، في حين نظرت ڤانيسا إليها باستحسان. حتى «السينيورا فارينز» التي بدت ضعيفة هشة كالعصفور في كرسيها، أبدت ملامحها السرور. أما لورنزو فقد سُرّ للغاية، خصوصاً بردة فعل كل واحد منهم، فهو لطالما أحبّ رؤية الذهول على وجوه من حوله.

قال لها فيما بعد، عندما كانا وحدهما:

ـ أحب أن أراهم يقفزون! فهذا يثبت لي ولهم أنه ما زال بإمكاني أن أترك بصماتي. عندما كنت شاباً، أمضيت وقتاً طيباً مع الفتيات. ثم اكتشفت متعة العمل، وسياسة القوة في دنيا المال، وقد اجتزت ذلك

الآن. إنني استيقظ احياناً في الليل وأقرص نفسي فقط لكي أتأكد من أنني لست ميتاً، ولكنكما، أنت وبول، أعطيتماني فرصة جديدة في الحياة، يا عزيزتي، لقد عدت أشعر بالحيوية وعاد الدم يجري في عروقي.

فقالت بلهجة زاجرة: «لا تفرط في ذلك، لقد ركضت مع بول مدة طويلة أمس».

فقهقه ضاحكاً: «أركض؟ هل كنت أركض حقاً يا عزيزتي؟ أنت تدهشينني».

ـ عدني بألاّ تتعب نفسك. أنا أعلم أنك تستمتع بذلك، ولكن عليك بالتروّي، فإذا فعلت ذلك فسيزداد استمتاعك بالحياة.

قالت له ذلك ضارعة. فقال: «لقد تحدث إليك دومينيكو! إنه امرأة عجوز أكثر من أمه!».

قال لورنزو هذا عابساً باستياء وقد بدا كطفل اختطفت منه لعبته الجديدة، فقالت برقة: «إننا نحبك كثيراً، هذا كل شيء!».

فرفع رأسه الأسدي بزهو: «هكذا؟ هل هذا صحيح يا عزيزتي؟».

وعندما أومأت باسمة، هز كتفيه.

ـ كيف يمكنني أذن أن أقاوم؟ لكنني سأكون أكثر حذراً لأجلك يا نيكولا وليس لأجلي!

* * *

رآها ليو تقترب، فلوّح لها بيده من نافذة برجه، يحييها، وعندما دخلت المرسم وهي تلهث، قال:

ـ يا لها من مفاجأة! أنا مسرور لقدومك هذا الصباح.

تهالكت على الكرسي الذي وضعه لها. عندما توشك اللوحة على الانتهاء، فستضطر لحمل پول على ركبتيها، لكنهما حالياً يستعملان دمية لأنه ليس من السهل أن يبقى پول جامداً في مكانه مدة طويلة.

عاد ليو ينظم الوضع مرة أخرى، مستوياً بهدوء وضعية ذراعيها وأمال رأسها بشكل يناسبه.

- ميلي إلى الخلف قليلاً... نعم...

وتراجع قليلاً يتفحصها بفتور وقد بدا جرّاحاً أكثر منه فناناً.

هذه الفكرة أضحكتها. وعندما نظر إليها بغيظ أخبرته، بمرح، بما تفكر فيه.

- بدوت وكأنك كنت تقرر أي ذراع ستبترها وليس أي وضعية سترسمني فيها!

قال بوقار: «لدى الجراحين والفنانين الثقافة نفسها في بعض الحالات. إنهم بحاجة إلى فكرة جيدة عن تشريح الجسم».

فأكملت كلامه شبه جادة.

- وغالباً ما يكتسبان الأعداء بعد انتهاء العمل.

فابتسم ليو: «هذا مؤكد بالنسبة للفنان... لكنني لست متأكداً بالنسبة إلى الجرّاح. أتصور أن الناس يكرهونه، فكلانا يرى الكثير من الحقيقة فيهم. والعقل الإنساني يكره أن ينكشف أمام الناس».

بقيت نيكولا صامتة تحدق في السماء الزرقاء وهي كل ما أمكنها رؤيته من النافذة.. كانا في هذه الغرفة فوق مستوى الأشجار بمراحل. وإذا أراد المرء أن يرى الأرض عليه أن يقف في النافذة وينظر إلى أسفل، وفجأة تساءلت عما إذا كان ذلك يشكّل خطورة فالنظر إلى العالم من أعلى يخلق حسّاً زائفاً بالتفوق عند الناس.

مزق صوتٌ ذلك الصمت السائد الذي يحب ليو أن يعمل فيه. وتأوه وهو يلقي الفرشاة من يده.

- بيانكا؟

نظرت نيكولا حولها بضيق وارتباك. شعرت دائماً بأن بيانكا لا تحبها، فلطالما حدّقت إليها بعداء واضح! ولكن لا يجدر بنيكولا أن

تشعر بالذنب. فهي وپاولو وقعا بالغرام، ومع ذلك، كانت نظرات بيانكا الباردة تجعلها دوماً تشعر بأنها قد آلمتها بالزواج بپاولو. إنّ بيانكا فتاة مخلصة بعض الشيء. وقد أحبّت باربرا التي كانت مرشحة للزواج بپاولو. فلم تصفح عن نيكولا لتسببها في آلام تلك الفتاة ولو دون علم منها.

دخلت بيانكا الغرفة ثم جمدت مكانها عندما رأت نيكولا.. ساد صمت بارد، ثم كشر ليو:

- حسناً يا أختاه؟ ماذا تريدين؟

انتبهت الفتاة لتأملاتها العدائية نحو نيكولا، ثم قالت.

- أريد أن أتحدث معك... على انفراد!

فنظر إليها بغضب: «لا بأس، يا سيئة السلوك! نيكولا، يا عزيزتي، هل لك أن تعذريني؟ وتعذري أيضاً أختي الصغيرة السيئة التي وجب على أبيها أن يضربها لوقاحتها لكنه للأسف بعيد مئات الأميال في أميركا الجنوبية؟».

قالت له بيانكا بحدة: «إياك أن تجرؤ على الاعتذار عني، يا ليو، خصوصاً لها».

فقال برزانة: «أنت حمقاء يا بيانكا، وسيئة التربية أيضاً».

خرجت بيانكا من الغرفة دون جواب، وتبعها ليو متنهداً، قائلاً لنيكولا أن ترتاح قليلاً ريثما يعود.

نهضت تتمطى، ثم أخذت تجول في أنحاء الغرفة، متفحصة مختلف اللوحات المنجزة وغير المنجزة، كانت إما عصرية للغاية، وإما من النوع الواضح تماماً.. من الواضح أن دومينيكو تصرّف بخشونة عندما وصف لوحات ليو بأنها غير مميزة الأشكال، أم ترى ليو قد تعمد إغاظته ليعتقد ذلك؟ لقد أصبحت الآن تعرف ليو جيداً لذا تراه أهلاً للتصرف بهذا الشكل، فليو يكره، نوعاً ما، وضع دومينيكو الخاص في

الڤيلا. إنهما أولاد عم، وقرابتهما للورنزو واحدة، لكنّ ليو شعر أن دومينيكو تفوّق عليه بشكل غير عادل، وذلك بتسلمه أعمال الكروم بينما أصبح هو فناناً، وهذا ما جعل دومينيكو مفضّلاً حتماً عند لورنزو، والسلطة الحاكمة في البيت.

على مكتب قرب النافذة، قام صندوق أقلام حادة ومحفظة جلدية غير مربوطة جيداً. سحبت نيكولا العقدة بإهمال، فانفصلت عن بعضها البعض وتناثرت منها الأوراق. جمعتها وعادت ترتبها وإذا بأصابعها تتجمد عن الحركة وهي تدرك، بعجب وذهول، أنها تحدق إلى بعض الرسوم الرائعة بقلم الرصاص لڤانيسا.

استعمل ليو أدق الأقلام وأرق الخطوط وذلك بشكل غير محدد وإنما دوماً على سبيل التجربة، بدا شعر ڤانيسا منساباً كالأفاعي أو كشلال المياه، حول وجه بالغ الرقة والنقاء.

لكن مزيداً من التأمل كشف عن نواح أخرى من هذه الرسوم. كانت العينان مرسومتين بدقة... ولكن في أعماقهما تكمن معانٍ مبهمة غامضة... معرفة باردة، أسرار... وكان الفم منفرجاً بآهة رقيقة.. فبدا في تلك الخطوط القسوة والنهم.

تعمد ليو أن ينفث في هذه الصور مشاعر حادة. فشكّلت البراءة والنقاء قناعاً للأنانية والفساد.

أخذت نيكولا تحدق في الصور واحدة تلو الأخرى وقد سمّرها الحنق والذهول. متى رسمها؟ ولماذا رسمها؟ العداء المرّ فقط يمكنه أن يفسّر ما وضعه في ڤانيسا من مزايا فظيعة.

التفتت عندما سمعت وقع خطوات على السلم، وسحبت يدها، بينما وقف ليو عند العتبة جامداً يحدق إليها. فقالت متلعثمة لشدة غضبها:

- كيف يمكنك أن تكون بمثل هذه الغلظة وعدم الصدق؟ إذا هي

رأتها ستتألم كثيراً...

تقدم ليو نحوها بصمت، وأخذ المحفظة منها وأعاد الصور إلى مكانها ثم ربطها بإحكام، قبل أن يقول بإيجاز:

- ما كان ليراها أحد لولا تجسسك.

ورأت أنه يقول الحقيقة فقالت: «آسفة إذا تجاوزت حدودي. لم أعرف أنك ستمانع... لقد سبق وأن أريتني رسوماً أخرى ولوحات».

- ما كنت لأتركها هنا لو علمت أنك قادمة هذا الصباح.

قال ذلك وهو يضع المحفظة في خزانة الجدار ثم يقفل بابها بعناية. وسألته بحيرة: «ولكن، لماذا رسمت هذه الصور، يا ليو؟».

فقال بحدة: «هل لنا أن نغيّر الموضوع؟ اتركي لي بعض الخصوصية في حياتي».

فاحمر وجهها لحدة جوابه، وعادت إلى الكرسي الذي يرسمها عليه، لكن سحر الجلسة الماضية قد تبدّد. أخذ ليو يرسم فترة، ولكن بدا عليه عدم الثقة بعمله، وأخيراً ألقى الفرشاة بعيداً وهو ينظر بكآبة: «هيا، انصرفي، فقد فسد النهار... لن أستطيع الرسم اليوم».

* * *

٩ ـ قناع الماضي

كانت نيكولا تغسل بعض الخضار عندما دخلت ڤانيسا المطبخ وهي ترتدي بنطلوناً أسود أنيقاً وبلوزة بيضاء من الشيفون.

قالت نيكولا بإعجاب: «تبدين رائعة».

هزّت ڤانيسا كتفيها غير مهتمة للإطراء: «نيكولا أظنني سأذهب غداً إلى الوطن».

سقط ما تحمله من بين يديها فاندفعت تجمعه، وعندما نجحت في ذلك، التفتت إلى أختها غير مصدقة: «هل أنت جادة؟».

احمر وجه ڤانيسا وتجنبت نظرات أختها: «جادة تماماً».

ـ ولكن لماذا؟ هل أساء إليك أحد؟ هل هي بيانكا؟

أضافت السؤال الأخير بسرعة فضحكت فانيسا: «بيانكا؟ لا بد أنك تمزحين. لا يمكنها أن تؤثر علي بشيء».

ـ لماذا إذن؟ ظننتك تستمتعين بالإقامة هنا.

أخذت أختها تعبث بطبق، ثم قالت: «أظنني أحنّ إلى الوطن».

لكن نيكولا لم تقتنع وقالت برقة: «ما الخطب، يا ڤان؟ لا أراك سعيدة. ما الذي حدث؟».

ـ لا... لا أدري.

وأخذت تلوك خصلة من شعرها الأشقر، كتلميذة مدرسة، فتذكرت نيكولا أختها وهي تفعل ذلك أيام التلمذة، وجعلها هذا التفكير تشعر

بالحنان والتنبه، لا بد أن أمراً خطيراً حدث لڤانيسا وجعلها تفقد اتزانها.

أترى رأت ڤانيسا، بشكل ما، الصور التي رسمها لها ليو؟

ولكن متى رسم ليو تلك الصور، أرسمها خفية؟ لم تره قط يرسم ڤانيسا، فقد كان الإثنان على عداء حاد منذ اليوم الأول.

قالت برقة: «إذا أخبرتني، فقد أستطيع مساعدتك».

فنظرت إليها أختها بعجز تقريباً وقد استدارت عيناها الزرقاوان وتندتا بالدموع. وفكرت نيكولا لو أن ليو رآها بهذا الشكل لما رسم لها تلك الصور المتوحشة.

ـ نحن لا نعرف الكثير عن بعضنا البعض، وحتى الأصدقاء الحميمون قد يدهشون عندما يكتشف أحدهم نواحي جديدة عن الآخر.

ـ أواه، يا نيكولا! أظن... أظنني عاشقة.

قالت ڤانيسا هذا متأوهة بضعف وقد بدا الذعر على ملامحها، ومضت لحظة تملكت فيها روح التسلية نيكولا. وضحكت عالياً للتعبير الهزلي الذي بدا على وجه أختها وهي تنطق بهذه الكلمات، لكنها عندما رأت أن ضحكها آلم ڤانيسا عادت بسرعة إلى اتزانها، وكانت ڤانيسا قد استدارت لتبتعد مجروحة الكرامة، لكن نيكولا أمسكت بذراعها.

ـ آسفة. ما كان عليّ أن أضحك، لكن منظرك بدا مضحكاً.

ـ قد يبدو مضحكاً لك، لكنني لا أضحك.

وبدت ڤانيسا ساخطة متصلبة. فوافقتها نيكولا بحنان: «هذا ما أراه. إنه دومينيكو، طبعاً؟».

فاتسعت عينا ڤانيسا.

ـ دومينيكو؟ لا!

وبدت مجفلة.

ـ لا؟ ولكن...

وتلاشى صوت نيكولا وعندما نظرت إليها ڤانيسا بصمت، خطر لها

خاطر مفاجيء.

- ليس... ليو؟

أومأت ڤانيسا بصمت وهي تعض شفتها.

- ليو!

وأدركت نيكولا كل شيء الآن، لا بد طبعاً أن يلوّع ڤانيسا الألم وهي تدرك أن ليو يكرهها وأن حبها له غير متبادل، ويا لها من مأساة ساخرة أن ڤانيسا، تلك الهادئة المعتمدة على نفسها، تقع في غرام رجل يحتقرها مثل ليو! وأومأت نيكولا قائلة:

- فهمت الآن لماذا تريدين الرحيل. سأتحدث إلى لورنزو. ماذا نقول له؟ إن عليك أن تعودي إلى عملك؟

- لِمَ لا؟ أي عذر سينفع، ولورنزو لن يكترث للأمر، فهو لا يريد سواكما، أنت وپول، بل لن يلحظ غيابي... كما لن يلحظه أحد آخر... خصوصاً لـ...

وسكتت وهي تكاد تجهش بالبكاء.

- منذ متى...

ابتدأت نيكولا بهذا السؤال ثم سكتت وقد أدركت أنه لا يجدر بها أن تطرح هذا السؤال، فعلى الشقيقات أيضاً ألاّ يتدخلن في أسرار بعضهن.

- من النظرة الأولى، لقد أغضبني جداً، لكنه في الوقت نفسه جعل كل شخص آخر يبدو شاحباً بليداً. حاولت أن أحب دومينيكو، فهو أيضاً مغرٍ تماماً، وسيكون زوجاً ممتازاً، لكنني لم أستطع أن أراه. بدا وكأن ليو يهيمن على كل شيء... وبعد ذلك لم أستطع النوم، أنا أعلم أنه يكرهني... فهو يظهر ذلك بوضوح، لكن ذلك لم يشكّل أي فرق... فأنا أشعر بالمرض كلما نظرت إليه.

وضعت نيكولا ذراعيها حول أختها وقد نسيت أمر الخضار. لم

يكن الطعام مهماً، فإذا تلف الغداء فستصنع سلطة.

أخذت تمرر يدها على الخصلات الشقراء، وللمرة الأولى، بدت ڤانيسا غير مهتمة لتبرجّها، ووضعت رأسها على كتف شقيقتها وبكت حتى سال الكحل على وجنتيها المبللتين.

* * *

تملكت الدهشة لورنزو وسألها: «هل يجب أن تذهب حالاً؟ لكنني خططت لمفاجأة صغيرة لكما... حفلة!».

وابتسم لنيكولا فازدادت تجاعيد وجهه. فدهشت.

- حفلة!

- ولن تقومي أنت بالطهو بعد الآن، يا عزيزتي، لقد طهوت لنا طعاماً رائعاً. لكننا نريد منك الآن أن تسمحي لشخص آخر بأن يقوم بذلك ريثما تعود ڤيوليتا. لڤيوليتا ابنة عم تدعى «آنا» وهي أرملة. إنها طاهية ممتازة.

وهز إصبعه في وجهها.

- إنها بحاجة إلى المال يا عزيزة، بينما أنت لست كذلك!

في مواجهة هذا النقاش، لم تجب نيكولا بل ابتسمت معتذرة:

- هذا لم يخطر في بالي. آسفة. نعم، طبعاً يجب أن تأتي «آنا».

قال مبتهجاً: «لقد أمتعتنا بمهارتك، يا عزيزتي...».

سألته بعد لحظات: «متى ستصل «آنا»؟».

- جاءت تراني هذا الصباح وتتوسل إليّ أن أمنحها فرصة تريني فيها مقدرتها. كانت تعلم طبعاً أنك تطهين فقالت إنها ستعمل معك. لكنني أخبرتها بأنك تقومين بهذا العمل فقط حتى نجد طاهية مكان ڤيوليتا.

ونظر إليها طويلاً.

- هل وجدت تحولاً في المشاعر عند أحدهم؟ بيانكا مثلاً؟ هل تتصرف الآن بشكل أفضل؟ لقد تكلمت إليها بعد حادثة الكرة تلك على

www.elromancia.com

السلالم. كان بإمكانها أن تقتل شخصاً ما.. كنت حازماً جداً معها. وأرجو أن تندم على فعلتها هذه بعد ما قلته لها.

أخذت نيكولا تفكر أنه ربما توارت كراهية بيانكا في أعماقها، لكنها لم تُدفن تماماً. فقد كانت كراهيتها تبدو أحياناً في تصرفاتها، كما أنّ عينيها تكشفانها دوماً وسألت لورنزو بفضول:

- هل كانت مولعة جداً بصديقتها باربرا؟

- بيانكا؟ آه! لا تصدقي كل ما تقوله لك، يا طفلتي العزيزة، صحيح أنها كانت مولعة بباربرا، لكن السبب غير ذلك. كانت بيانكا مغرمة بپاولو على ما أظن، فقد كانت في سن حساسة سريعة التأثر. والفتيات الصغيرات لا تكون مشاعرهن عميقة! وعندما كتب إلينا عن زواجه بك شعرت أنه صفعها!

وهز لورنزو رأسه «الأسدي» بعطف.

- مسكينة بيانكا! لقد أحرقتها الكراهية والحب... وهذا هو سبب تصرفها بذلك الشكل.

- لقد شككت في الأمر. هل تزوجت باربرا شخصاً آخر؟

- لم تتزوج بعد، لكنها ستتزوج قريباً جداً كما أظن.

- سمعت شائعةً تقول إن بيانكا ستتزوج دومينيكو.

قالت ذلك بعفوية، وانتظرت جوابه حابسة أنفاسها بألم.

- لقد نقلت بيانكا عواطفها إلى دومينيكو، هذا صحيح، وأنا رأيت أن لا ضير من زواجهما، لكنني توقفت عن التدخل في علاقات الآخرين منذ قدومك، يا عزيزتي، لقد اقترفت غلطة فظيعة بحقك. ومن أنا لأقول من يجب أن يتزوج من؟ تلك حماقة كبرى.

- و... دومينيكو؟

كان صوتها أجش. ورمقها لورنزو من تحت جفنيه المسبلين وابتسم بشيء من الدهاء:

- يجب أن تسأليه بنفسك، يا عزيزتي. اسأليه إن كان عاشقاً.

* * *

دوّن لورنزو قائمة بأسماء المدعوين إلى الحفلة التي سيقيمها على شرف نيكولا وأعطاها إياها، ثم طلب منها أن تشتري من المكتبة في فلورنسا بطاقات دعوة مطبوعة ليدونوا عليها الأسماء.

عرض دومينيكو أن يقلها بالسيارة إلى المدينة بعد الغداء، إذ باتت ساعات عمله غير مضغوطة، منذ نقل مكتبه إلى «الڤيلا» نفسها. لكن الموظفين لا يزالون يعملون في المكتب الكائن في فلورنسا، أما لورنزو فما زال يذهب إلى الشركة من وقت لآخر، كما أن عدة رجال آخرين من أفراد الأسرة يعملون في الشركة أيضاً لكن نيكولا لم تتعرف بعد إليهم.

ولكنها ستفعل حين يأتون إلى الحفلة. حيث رأت في القائمة عدداً كبيراً من أسماء أفراد أسرة فارينز، وقد أخبرها دومنيكو في طريقهما إلى فلورنسا، أنّ أسرتهم كبيرة، لكنهم ليسوا جميعهم أغنياء، فقد كانت الغريزة الأسرية في إيطاليا تقرب بين أفراد الأسرة على اختلاف درجاتهم.

- رغم كل شيء، الدم....

فأكملت له وهي تومىء: «أثقل من الماء...».

نظر إليها: «نحن مزهوون بماضينا. لكننا أيضاً مزهوون بمستقبلنا. قد نتمتع بالنفوذ نفسه، لكن لورنزو ما زال يشعر بعطف عميق على كل من تجري في عروقه دماء الأسرة، خصوصاً الأولاد. إنه مولع بالأولاد.

فقالت باسمة: «هذا ما لاحظته».

- پول هو شيء خاص، فهو حفيده، لورنزو يحب كل الأولاد، لكن أولاد الأسرة يعنون له أكثر.

- سأشعر وكأنني في استعراض. أظنهم سيأتون جميعاً.

- نعم جميعهم، سيأتون من كل زوايا الأرض ليروا أي نوع من

المخلوقات أنجب أسد فارينز. وسوف ستعرّيك عيونهم حتى العظم.

فقالت بجفاء وهي تومىء: «نعم، إن لعيون فارينز تلك المقدرة. فقد لاحظت ذلك».

ألقى عليها نظرة جانبية متفحصة: «هل تهدفين بهذا إليّ؟».

فأكملت: «أو ليو».

- ليو... آه، نعم! ليو. كيف تتقدم اللوحة؟ هل رأيتها؟.

كانت ملامحه قد تبدلت نحو التهكم البارد.

- هو لا يسمح بذلك.

- إن هذا لمدهش!

ضايقتها لهجته الجافة.

- ولكن من اللوحات الأخرى التي رأيتها، تكهنت بأن لوحتي ستكون معبّرة... أظن أنّ ليو يتمتع بموهبة.

فرفع حاجباً بسخرية: «يبدو التحدّي في لهجتك ولا أدري لماذا؟».

قالت باستياء: «لأنني اعلم أنك لا توافقني على ذلك».

- أنت لا تعلمين عني شيئاً.

كان صوته قد قسا، وأصبح غريباً خالياً من التهذيب، وبقيت نيكولا صامتة لحظة وهي تتساءل وبعد فترة سألها فجأة:

- هل أنت مغرمة بليو؟

اهتزت ونظرت إليه بانتباه، وقد أخذ نبضها يتسارع، وشحب وجهها للصدمة، بينما اتسعت عيناها الخضراوان وامتلأتا بألم لا واع. عند ذلك فقط واجهها ذلك السؤال، وهو أن عقلها قد أدرك ما كان قلبها يعرفه منذ زمن طويل، ليست مغرمة بليو... لا. بل بدومينيكو نفسه. غرام غمر كيانها بأكمله بمشاعر البهجة والألم بعد أن اعترفت به.

تركته معلقاً طويلاً دون جواب، فتوتر وجه دومينيك وقال ببرودة: «فهمت، لقد توقعت هذا».

- لا.

قالت هذا متلعثمة وقد تناوبها الارتجاف والحرارة، متلهفة إلى إقناعة بأنه مخطىء.

- لا، طبعاً! أنا لست مغرمة بليو، ولا أدري ما الذي جعلك تظن ذلك.

فقال بهدوء: «لست بحاجة لأن تكذبي عليّ، فأنا أعرفك جيداً الآن، يا نيكولا، لقد شحب وجهك أولاً ثم احمّر ومثل هذه المظاهر لا تدل إلا على مشاعر عميقة. أنا آسف لأجلك، فليو لا يناسبك، وهو سيسبب لك التعاسة، لقد سبق أن حذرتك منذ البداية، لكنك لم تصغي إليّ، فأنت عنيدة كثيراً».

تساقطت هذه الكلمات كحصى ثلجية في عقلها، فأصغت إليها مجفلة، يا لكرهه واحتقاره لها! ما فائدة الجدل معه؟ فهو لا يصدق إلا ما يريد تصديقه، والأفضل له أن يصدق أنها تحب ليو على أن يشتبه في أنها تحبه هو.

اقتربا من المدينة الآن، وكانت السيارات تتدافع حولهما، وسائقوها يميلون إلى خارجها يصيحون ببعضهم البعض ويتشاتمون، وأبواق السيارات تدوّي دون توقف..

في الأمس أراها لورنزو خريطة فلورنسا في القرون الوسطى معلقة على جدار مكتبته. السماء الزرقاء المقوسة فوق الجسور البيضاء، مجمعات البيوت الصغيرة التي يحيط بها سور المدينة القديم. وها هي أمام المدينة العصرية التي كانت وما زالت حافلة بذكريات الماضي في بعض نواحيها... فبقايا السور ما زالت هنا وهناك. لكن المدينة امتدت من السور إلى المنطقة الريفية الخضراء... وشعرت بإلفة غريبة في هذه المدينة... وكأنها تعرفها منذ مدة طويلة. إنها ذات مركز واضح محدّد... أحست، بكل ذلك بقلبها.. كان المركز هو قلب المدينة

الخفّاق، بأمكنته التاريخية وتماثيله التي كانت من صنع الطبيعة أكثر منها من صنع الإنسان.

أوقف دومينيكو السيارة ثم عرض عليها أن يقلها إلى المطبعة، لكنها رفضت بأدب رغبة في الوحدة. كانت تريد أن تتحرى عن حبها الجديد هذا... أن تعرف حدوده، ثم نوع حبها القديم ذاك، وزواجها القصير وما هو مدى حبها لدومينيكو بالنسبة إلى ذاك؟

سارت، دون تردد، عبر الشوارع القديمة الضيقة.. مرت بأبواب مفتوحة يجلس فيها رجال ونساء يخيطون، وأولاد يلعبون بألعاب بلاستيكية مبهرجة الألوان، وفوقها كانت جدران متفتتة ونوافذ تدلت منها نباتات وازهار في أصص وصناديق.

سرها أن تعرف طريقها في الشوارع الضيقة المتشابكة دون مساعدة لأن ذلك يجعلها تعرف المدينة حقاً.

تسلم موظف المطبعة الطلب منها بسرور. وأخذ يتحدث إليها وهو يقوم بتنفيذه، رافعاً صوته فوق فرقعة آلته الطابعة.

وعندما غادرت محله والدعوات في حقيبتها، أخذت تتمشى فترة على غير هدى، مستمتعة بأشعة الشمس وازدحام المدينة.

وعندما أدركت أن السير في الزحمة المتزايدة أخذ يزداد صعوبة عادت إلى مكتب دومينيكو. كان قد قال لها إنه سيكون هناك في الخامسة، ووجدت أنها تأخرت. وكان يتمشى ذهاباً وإياباً بقرب سيارته وقد بدا عليه الضيق والقلق معاً.

وعندما وصلت التفت إليها غاضباً.

ـ أين كنت بحق الله؟ أنت وحدك في مدينة غريبة... كان يمكن أن يحدث لك أي شيء! لماذا لم تتصلي هاتفياً حين أدركت أنك ستتأخرين؟ وما الذي أخّرك إلى هذا الحد؟

انتظرت نيكولا إلى أن سكت ثم أجابت: «آسفة، لكنني كنت أتفرج

فقط، أردت أن أرى من هذه المدينة القديمة قدر ما أستطيع».

حملق فيها وهو يصرف بأسنانه، وبعد لحظة قفز وفتح باب سيارته.

ـ اصعدي!

بعدما أطاعته بخنوع، انطلق بالسيارة من الموقف وكأنه في سباق إلى القمر، وعندما أخذت تختلس إليه النظر وجدته يحدق إلى الطريق أمامه وقد توتر فكه. ورأت أن غضبه هو بسبب شيء آخر أكثر منه لمجرد تأخرها. هل حدث شيء؟

قالت برقة فائقة: «كان يجب أن أتصل بك. أنا حقاً آسفة، يا دومينيكو».

فقال بإنجاز وبرودة: «انسي هذا».

ولكن بعد دقيقة أو اثنتين عاد يتحدث، ببشاشة بالغة، عن القسم القديم من فلورنسا.

تحدثا عن المشاكل الوطنية فترة إلى أن اجتازا المدينة، وأخذت السيارة تصعد تلال توسكاني الخضراء.

ـ هل تنوين الآن الإقامة في ايطاليا؟

سألها هذا فجأة فترددت: «لم اكن أنوي هذا عند مجيئي. لكنني الآن، بعد أن عرفت لورنزو، أصبحت أرى الأمور بشكل مختلف».

ـ بعد أن عرفت لورنزو...

وأصبحت لهجته جافة.

ـ الأمر إذن غير متعلق بليو، طبعاً.

دهشت لعودته إلى ذكر ليو، لكنها اغتنمت الفرصة لتنكر ما يظنه من حبها للشاب. وأصغى هو إلى إنكارها المتلعثم بجمود وعندما انتهت، قال: «أنت ملتهبة المشاعر أكثر مما ينبغي».

فقالت: «إذا أردت أن أبقى الآن، فهذا لأجل لورنزو وبول. لورنزو

يحب پول. وكنت خائفة من أن يعامل پول كما عامل أباه، لكن ذلك لم يحدث».

- إنه كبير السن الآن، وهو يدرك تماماً قصر الوقت الذي بقي له في الحياة. لذا كل ما يريده هو أن يستمتع بصحبة پول.

- وهذا ما أظنه! وما أروع أن أراهما معاً! أنا مسرورة لأنني أحضرت پول، وإلا لفاته الكثير، لأن ليس لديه أب ليتذكره، والآن سيكون لديه جده على الأقل. وهذا سيغني حياته.

فتنهد بعمق: «أنت أكثر حكمة مما كنت عليه، يا نيكولا».

- نعم، هذا صحيح.

- وپاولو؟ هل وجودك هنا في الڤيلا، أحيا ذكراه في نفسك؟ أم أن ليو أخرجه من قلبك أخيراً؟

- في البداية، فكرت كثيراً في پاولو، بطبيعة الحال، ولكن مؤخراً، أظنه أصبح في طيّ الذكريات. لقد تخلصت أخيراً من شبح المرارة القديم. إن استيائي من أسرة فارينز أبقى حزني حياً، لكن ذلك انتهى الآن.

بقي دومينيكو صامتاً فترة، ثم قال ببطء: «يمكنني أن أفهم ذلك. كنت حكيمة لأنك وضعت حزنك جانباً. وأنا واثق من أنك تعرفين الرجال بما يكفي لكي تعلمي أن أي رجل سيتزوجك سيشعر بشيء من الغيرة من زوجك الميت، ومع ذلك، سيعرف أنك أحببته بما يكفي لكي تتزوجيه. وهذه الحقيقة ستبقى دوماً بينك وبين أي شخص آخر».

- هذا فقط إذا لم يشعر بأنني أحبه هو أكثر، بكل تأكيد.

فقال بصوت فظ: «وهل يمكنك ذلك؟ كيف له أن يصدق أنك تحبينه أكثر؟ وكيف سيتمكن من الإحتمال إذا هو شعر بأن حبك له هو أقل من حبك لزوجك الميت؟».

قالت بحرارة: «لقد أحببت پاولو كما تحب جميع الفتيات».

- وكيف هذا؟ أخبريني.

كان صوته ينقّب في أفكارها دون رحمة، دون اهتمام بما يسببه لها من ألم حتى كادت تكرهه.

- وأنّى لك أن تفهم؟ أنت لست فتاة. كنت شاعرية متلهفة إلى الحب. جرفني الافتتان بذلك الأجنبي الساحر. لم نكن، أنا وپاولو، نعرف عن بعضنا البعض الا القليل. وتزوجنا في زوبعة الافتتان ذاك، ثم مات بعد فترة قصيرة.

- والفترة التي أمضيتماها معاً؟

فنظرت إليه بغضب، موشكة على البكاء.

- في تلك الفترة؟ ما الذي تريد مني أن أقول؟ إنني أكتشفت أن زوجي مقامر كبير؟ وأنه يعشق قيادة السيارات بسرعة فائقة، وأنه يغازل كل فتاة جميلة يراها؟ وأنه ينفق المال وكأنه ماء...؟

كانت الكلمات تتدفق من فمها بحرارة وهي تشهق بألم.

- بماذا تظنني شعرت حين قُتل؟ كنت ممزقة بين شعور مخيف بالراحة وبين عذاب مرّ من تبكيت الضمير وذكريات الحب. بقيت أشهراً وكأنني في جهنم.

دخلا بوابة فارينز حيث كان الأسدان يزمجران رافعي مخالبهما وكأنهما يهمان بضربها. وكانت تشهق بصوت مرتفع بعنف جعل جسدها كلّه يرتجف حزناً وانهياراً بعد طول سكوتها عن حالها مع پاولو.

انعطف دومينيكو بالسيارة ليركنها تحت شجرة، ثم التفت يمسك بيدها هامساً: «عزيزتي، أنا آسف. هكذا كانت الأمور إذن».

دفعته عنها وهي ترتجف بعنف: «أرجوك... لا أستطيع احتمال ذلك... يجب أن أذهب».

وقبل أن يستطيع منعها، فتحت الباب وقفزت من السيارة وأخذت تركض في الحديقة. ترجّل هو أيضاً من السيارة وكأنه يريد اللحاق بها

ثم عاد فوقف ويده على مقدمة السيارة وهو يحدق في أثرها.

توارت عن النظر خلف السياج. بينما أخذت العينان الرماديتان تنظران بجمود إلى التماثيل والممرات المرصوفة بالحصى، ثم عاد ليقود سيارته، نحو المنزل وقد كسا وجهه قناع بارد.

***

١٠ ـ القلب الأسود

قرّر لورنزو بأن يتحدث شخصياً إلى ڤانيسا ليقنعها بالبقاء عدة أيام لكي تحضر الحفلة التي سيقيمها على شرف أختها.

ذهبت نيكولا إلى غرفة أختها مباشرة، بعد أن غسلت وجهها من آثار الدموع وغيرت ملابسها، فوجدت ڤانيسا جالسة على السرير تتأمل ثوب سهرة طويلاً ذا لون ازرق سماوي.

ـ هل أفهم من هذا أن لورنزو قد أقنعك بتغيير رأيك؟

قالت نيكولا ذلك متفكهة، فقالت ڤانيسا: «هممم... ما رأيك يا نيكولا؟ هل هذا الثوب أفضل أم الأبيض؟ هذا رائع لكن الثوب الأبيض يمنحني تأثيراً ما!».

قالت نيكولا بحزم: «بل هذا أفضل، فهو أكثر شاعرية».

ـ أتظنين هذا؟

وأخذت ڤانيسا تتفحصه، وهي تميل برأسها.

ـ أريد أن أبدو مذهلة للغاية، يا نيكولا أريد أن ألفت انتباهه. أتظنين أن هذا الثوب سيفي بالغرض؟

ـ البسيه وانظري إلى نفسك.

ـ آه! ولكن هذه آخر فرصة لي... ولا يمكنني المغامرة... ولا بد لي أن تنجح.

بدا صوت ڤانيسا يائساً جافاً فمس قلب نيكولا، لأن أختها الجميلة

www.elromancia.com

تخلّت عن كبريائها.

قالت لها برقة: «ولكن ليس هناك من ينافسك».

لكن ڤانيسا تنهدت: «ستكونين أنت هناك. أتظنين أنني لا أعلم أنه يفضّلك أنت؟».

فقالت نيكولا وقد احمر وجهها: «أنت مخطئة، يا ڤانيسا إننا مجرد صديقين حميمين. لم يحدث بيننا أكثر من هذا».

سمرت ڤانيسا عينيها عليها: «لا يمكنني أن أصدق هذا. إنه يمضي وقتاً طويلاً معك يرسمك ساعة بعد ساعة وتبقين وحدك معه في ذلك البرج السخيف...».

- ليو لا يعني لي شيئاً كما لا أعني له شيئاً.

كان في صوت نيكولا ثقة جعلت ڤانيسا تنظر إليها بحدة، وبدا أنها صدقتها، فقالت هازلة بأسى: «حسناً، هذه مشكلة عائلية قد انحلّت».

وتملك نيكولا التأثر: «كنت تظنيننا... أنا ولبو، على علاقة حب، ومع ذلك لم تعنفيني مطلقاً؟ هذا عدم أنانية منك يا ڤانيسا».

- إذا كان يحبك، فما فائدة أن أقول شيئاً؟ ولكن بعد أن أدركت أنك لا تحبينه، استطعت أن أبوح لك بمشاعري.

- وكيف عرفت انني لا أحبه؟

فترددت ڤانيسا: «أنا... لا أدري تماماً...».

ونظرت إلى أختها بخجل.

- رأيتك مرة تنظرين إلى دومينيكو... آسفة، لم أشأ أن أتطفّل عليك... وإنما خطر هذا فقط ببالي.

ضحكت نيكولا: «إننا مجنونتان، حقاً، إذ نعشق رجلين لا يهتمان بنا، ربما من الأفضل أن نعود إلى الوطن نحن الاثنتين».

ذلك المساء، جلسا، هي ولورنزو، وكتبا مغلفات الدعوات ووضعا في داخلها البطاقات.

وتقدم ليو منهما يتفرج: «هل أنا مدعو أيضاً إلى هذه الحفلة الاستثنائية؟».

- طبعاً، بشرط أن تراقب سلوكك.

وألقى لورنزو عليه نظرة طويلة جادة، أمّا بيانكا، التي كانت تجلس جانباً غاضبة الملامح شاحبة الوجه، فأشاحت عنهما بوجهها وقد ازداد تصلبها وهي تسمع هذه الكلمات، وشعرت نيكولا ببرودة ثلجية والعينان السوداوان ترمقانها بنظرة جانبية تنمّ عن عداوة مرة.

كانت قد توقفت عن محاولة توقيع هدنة سلام مع الفتاة، فقد رفضتها بيانكا ببرودة، والازدراء في كل خط في وجهها. رأت رغبة نيكولا في الصداقة معها بادرة ضعف، فاستخفت بها. دم بيانكا الإيطالي هو نتيجة كبرياء شامخة، فهي تفضل الموت على أن تحاول اكتساب عدو. كان الحسد والغيرة ينخزان عقلها، وعندما عاد دومينيكو إلى الغرفة ليجري مكالمة هاتفية، حاولت بيانكا أن تجذبه إليها بابتسامة متلهفة. فبادلها بابتسامة باهتة مختصرة، وجاء ليجلس بجانب لورنزو ليتحدث إليه.

تحدثا عن العمل دقيقة أو اثنتين، ثم نظر دومينيكو إلى نيكولا. كان قد تجنبها أثناء العشاء. وبقي صامتاً تقريباً، ومنعزلاً. لكن عينيه الآن استقرتا على وجهها، معرية مشاعرها دون رحمة.

انكمشت أمام نظراته دون إرادة، وخفضت عينيها وكأنها تحاول الدفاع عن نفسها. أما دومينكو فازدادت شفتاه توتراً، وضاقت عيناه الرماديتان حتى اصبحتا كشقين في حجر صوان. بينما أخذ ليو ينقل نظراته بينهما وقد استغرق في تخمينات مسلية، وقالت نيكولا بسرعة وهي تقفز واقفة.

- أنا متعبة، هل لك أن تعذرني يا لورنزو إذا ذهبت إلى الفراش؟ أظنني سرت طويلاً اليوم في شوارع فلورنسا في الشمس وأنا الآن أشعر

بصداع خفيف.

وقطب لورنزو حاجبيه: «آسف لسماعي هذا يا عزيزتي، هل لديك حبوب لتخفيف الألم؟ هل نحضر شيئاً؟ أسبرين؟».

فقالت له باسمة: «لدي بعض الحبوب، شكراً».

وإذا بليو يقف متكاسلاً، ولكم فاجأها وأذهلها عندما قبلها بخفة.

رقصت عيناه السوداوان وهو يضحك لوجهها الذاهل، ثم تمتم برقة:

ـ تصبحين على خير، يا عزيزتي نيكولا.

وساد صمت عميق، وشعرت بالعيون مسمّرة عليها. كان لورنزو مجفلاً حائراً غاضباً نوعاً ما من ليو، بينما كان دومينيكو ينظر متجهماً، أما ڤانيسا... فلم تجرؤ على النظر إلى أختها.

توجهت نيكولا إلى الباب متعثرة، شاعرة بالدوار ممزوجاً بتأثير سيرها تحت الشمس في النهار، ثم صدمة قبلة ليو. كان تصرف ليو، بطبيعة الحال، ناشئاً عن مكر. كانت تلك القبلة مجرد إغاظة، ولكن لمن؟

سارت إلى غرفتها ثم فتحت الباب. أثناء قيامها بالطهو نقلت أنجيلينا پول إلى غرفتها، لئلا يوقظ أمه في الصباح الباكر. كانت الغرفة أمامها خالية ساكنة، وسارت نيكولا إلى السرير وأشعلت النور بجانبه.

ثم صرخت... كان «دب» پول ملقىً على سريرها، وقد تمزّق بطنه وخرجت المواد التي حشي بها ونثرت على السرير، كما نزع رأسه وألقي على آخر السرير، فبدت العينان الزجاجيتان تحدقان إلى السقف بحزن.

تجاوبت خطوات راكضة على الأرض الرخامية في مكان ما، ثم اندفع دومينيكو داخلاً إلى الغرفة.

ـ هل أنت بخير؟

وركض إليها يحيطها بذراعيه وهو ينظر إليها متفحصاً.

ـ لماذا صرخت؟

كانت نيكولا ترتجف فلم يكن ذعرها واشمئزازها ناشئين عن منظر «الدب» بقدر ما يشير هذا العمل المدمر إلى كراهية حمقاء.

رفع عينيه، ورأى السرير. فضاقت عيناه وهو يرى كل ذلك، وقال بعنف بصوت خافت:

ـ يا إلهي! من فعل هذا؟

ثم انتقلت عيناه إلى منضدة الزينة. ورأت التوتر يزداد في وجهه فالتفتت لترى. فوجدا على المرآة بأحمر الشفاه كلمة واحدة مكتوبة «الموت».

لم تستطع منع جسدها من الارتجاف، وارتمت على السرير وهي تهمس:

ـ أرجوك. ناد ڤانيسا... لا يمكنني أن أنام هنا الليلة.

ـ لا طبعاً لا. ولكن... هل ستكونين بخير إذا تركتك؟

ولكن ڤانيسا وليو دخلا الغرفة في هذه اللحظة معاً.

ـ ما الخطب؟ فأرة؟

وكانت لهجة ليو هازلة في البداية. ثم، فجأة، رأى بقايا «الدب» والكتابة على المرآة، فتلاشت ابتسامته وهو يقول: «يا إلهي!».

بدت العداوة بينه وبين دومينيكو واضحة عندما ترك الأخير نيكولا واستدار يواجه ليو.

ـ ليس صعباً علينا أن نجد مقترف هذا العمل الكريه.

قال ليو: «بيانكا؟ إذا فعلت هذا فهي بلا ريب مريضة...».

ـ إذاً؟

وكان صوت دومينيكو فظاً.

ـ وهل تشك في ذلك؟ ومن غيرها يفعل شيئاً كهذا؟

مط ليو وجهه: «وماذا أفعل معها؟ لا بد أن عملها هذا ناشىء عن

تعاسة بالغة. أنا ضائع».

ونظر إلى نيكولا.

ـ أنا آسف يا عزيزتي، ماذا يمكنني أن افعل لأجلك؟ إنني أشعر بالخزي لقيام أختي بهذه الأعمال.

قالت ڤانيسا بهدوء: «لِمَ لا تعيدها إلى أبويها في أميركا الجنوبية؟ إنهما أحق من يعالج هذه المشكلة».

نظر ليو إليها بحماسة مفاجئة: «آه! نعم. لِمَ لم أفكر في ذلك؟ هذا ما سأفعله. إنها بحاجة إلى حب وعناية وأمان».

فقال دومينيكو: «لا يمكنك أن تعيدها إلى والديها».

نظرت نيكولا إليه بألم. إنه يعني، طبعاً، أنه سيرعى بيانكا، وأنها يجب أن تبقى في «القيلا».

أغمضت نيكولا عينيها. كانت مرهقة للغاية. لو يسكتون جميعاً ليدعوها تنام! فهي على وشك أن تنام في مكانها... ولكن ليس تماماً. إذ كيف ستحتمل هذه الغرفة الآن وهي تحتوي صدى هذه الكراهية كلها.. كانت الغرفة مسكونة بتعاسة بيانكا ورغبتها في الأذى. لقد جاءت الفتاة إلى هنا خفية وأخذت لعبة الصبي ودمرتها بتعمد ووحشية. ثمة شيء فظيع وراء هذا التدمير الذي صبّت به جام كراهيتها، ولم تستطع نيكولا أن تبعد عنها فكرة أن مرض بيانكا قد يدفعها بعد زمن قصير، إلى فعل ما هو أسوأ! بول نفسه، ذلك الطفل الضعيف، قد يكون هدفها النهائي.

ارتجفت لهذه الفكرة... بول... طفلها الصغير، معرض لمثل هذا الخطر الشنيع؟

شعرت ببرودة ثلجية تشل أطرافها. عقل بيانكا مسمّم، وما تفعله هو، إلى حدّ ما، صيحة تطلب العون... هناك الكثير ليقال بهذا الشأن، لأن من يخطط لمثل هذه الأعمال لا يمكن أن يكون عقله سليماً

طبيعياً. قالت بصوت مرتفع: «أنا آسفة لأجلها... آسفة جداً...».

وفتحت عينيها، كانت الغرفة تدور حولها بشكل غريب، وكذلك الوجوه. ڤانيسا مقطبة الجبين، ليو شاحب منزعج ودومينيكو... ونظرت إليه بأسف بالغ، ثم انحنت ڤانيسا تقول: «هيا يا حبيبتي، يمكنك أن تشاركيني غرفتي الليلة».

عندها أخذت نيكولا تبكي للحنان الذي لمسته في صوت أختها.

رقدت تلك الليلة بعمق، لكنه نوم أزعجته الأحلام. رأت نفسها في حديقة القيلا تركض في أزقة مسدودة، مواجهة جدراناً دون منافذ، كانت دوما تتراجع أمامها. وكانت تشم رائحة المطر على أوراق الشجر، لكن سكون الحديقة شلها عن الحركة. عقلها ينبض بالرعب، ونبضها يتسارع. كانت تعلم أن عليها أن تتابع الركض. ولكن لماذا؟

ثم رأت بول واقفاً على قمة أحد تلك الجدران. ناداها مادّاً ذراعيه لها، وحاولت أن تجيب. لكن حلقها كان أخرس جافاً.

ثم جاءت بيانكا نحوه تسير بجانب الجدار وقد بدت على شفتيها ابتسامة رهيبة. وأدركت نيكولا أن بيانكا ستدفعه، وأنه سيقع ويُقتل.

وصرخت... وتوالت صرخاتها. وفجأة وجدت نفسها على الجدار في مكان بول. وكان هو قد اختفى وضحكت بيانكا ودفعتها بقوة، وابتدأت تسقط، ببطء، وتنورتها تتطاير في الهواء، ومضت تسقط إلى أسفل ثم أسفل بتلك الحركة البطيئة التي غالباً ما ترينا إياها الأحلام.

فتحت عينيها على ضوء النهار في الغرفة، ورائحة القهوة تعبق في خياشيمها.. كانت ڤانيسا جالسة على طرف السرير متربعة تبتسم لها.

ـ مرحباً بعودتك إلى بلاد الأحياء. لقد رقدت كلوح من الخشب.

ـ كم الساعة الآن؟

والتفتت نيكولا إلى منضدة السرير حيث رأت الساعة تشير إلى العاشرة والربع. وبدا عليها الذعر.

- هل تأخرت إلى هذا الوقت؟

وهمت بالنزول من السرير بسرعة، لكن ڤانيسا وضعت يدها على ذراعها: «انتظري دقيقة. من المفترض أن تبقي في السرير حتى موعد الغداء».

- من قال هذا؟

- هل تصدقين؟ إنه لورنزو. كان مستاءً جداً لما حدث الليلة الماضية.

وضحكت.

- هل أخبروه عن «الدب»؟ ما كان عليهم أن يخبروه! كان يمكن أن يرعبه هذا فيصاب بسكتة أخرى!.

- لا يمكن أن يلفوه بالقطن بقية حياته. على كل حال، لم يعطه دومينيكو أي تفاصيل. قال له فقط إن بيانكا كسرت شيئاً يخصك فاستأت منها، وقد استنفر لورنزو على الفور.

فقالت نيكولا: «دومينيكو يريد منها أن تبقى هنا. سمعت ما قاله الليلة الماضية، سيجد طريقة يحميها بها».

قالت ڤانيسا بمرح: «سيأخذها إلى اميركا الجنوبية».

جلست نيكولا.

- سيفعل ماذا؟

وحدقت في أختها متسعة العينين، غير مصدقة.

- دومينيكو سيرافق بيانكا هذه المسافة كلّها إلى اميركا الجنوبية؟

فهزت ڤانيسا كتفيها: «يبدو أن لديه اتصالات عمل مع شركة هناك، فقرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد، يأخذ بيانكا إلى موطنها ثم يقوم ببعض الأعمال في الوقت نفسه».

- ومتى سيذهبان؟

أخذت ڤانيسا تسكب القهوة، وقدمت كوباً لأختها، وقالت

باختصار: «لقد رحلا».

فارتجفت يد نيكولا وهي تحمل الكوب: «أهكذا؟».

قالت ڤانيسا وهي تناولها الخبز: «دومينيكو لا يماطل في العمل ما إن يقرر... وشخصيته قوية حقاً، لكن الزواج به سيكون أشبه بالعيش مع محدلة. أتريدين زبدة؟ مربى؟».

دهنت نيكولا كرة الخبز بالزبدة والمربى بشكل آلي، وهي تقول:

- دومينيكو، إذن لن يحضر الحفلة؟

نظرت اختها إليها بفضول: «أشك في ذلك. هل شعورك نحوه جاد، يا نيكولا؟ أعني لقد عرفت أعراض الحب قبل الآن، لكنني عالجتها وكأنها عارض صحي عابر وانتهيت منها».

ضحكت نيكولا: «ما هو الدواء الذي أخذته؟ ربما أحتاج إلى النصيحة».

- جعلت نفسي ألاحظ كل صفاته السيئة، وأضحك عليه في عقلي وأنتهي بالسخرية منه.

وكانت ڤانيسا تقول هذا نصف جادة.

- وهل فعلت هذا مع ليو؟

تنهدت ڤانيسا: «كثيراً، ولم تنجح قطُّ. وهكذا تركت المقاومة غير المتكافئة».

- هل الأمر مؤلم إلى ذلك الحد؟

ضحكت ڤانيسا: «حبيبتي، كان في ذلك راحة لي!».

فقالت نيكولا بهزل: «راحة؟».

وارتشفت قهوتها فشعرت بالدفء ينتشر في جسدها، مبدداً آثار أحلام الليلة الماضية العاصفة.

مرّرت ڤانيسا أصابعها بخصلات شعرها الأشقر.

- مكافحة الحب شيء منهك، والمرء يتعب من النضال. أظنني

www.elromancia.com

كنت مستعدة للتعرف إلى ليو... النجاح يسبب السأم وها قد بدأت أملّ من عرض الأزياء ولا أظنني سأبقى في القمة طويلاً، فأنا لم أعد فتاة صغيرة. مهنة خلاّبة، ولكن حتى هذه بدأت تفقد إثارتها.

- هل ضجرت من مهنتك، يا «ڤان»؟

ابتسمت نيكولا ماحية بذلك سخريتها.

- لا أستطيع أن أصدق.

- أنا لست صلبة وانتهازية كما كنت أظن نفسي. عندما جئت معك إلى هنا، كان ذلك لأزيد فرصي في خطف دومينيكو... وأنت تعلمين هذا، أردت اختطافه حالما تسنح الفرصة. ولكن ما هي إلا نظرة واحدة إلى ليو حتى انقلبت حياتي رأساً على عقب.

وكشرت ثم تابعت:

- لقد هز كياني بشكل جنوني وأحسست في الوقت نفسه بالدوار والبهجة معاً، وهكذا تخليت عن كل آرائي القديمة ثم... وقعت في الغرام.

لمست نيكولا يدها برقة.

- أتمنى لو يكنّ لك الشعور نفسه، يا ڤانيسا، ربما إذا أنت بقيت هنا...

هزت ڤانيسا رأسها: «سأبقى حتى الحفلة ثم أذهب. لست آسفة قط لمعرفته، يا نيكولا. إنني مسرورة حتى إن لم ينظر إليّ قط. الحب يستحق كل المعاناة».

- سأفتقدك. كنا مسرورات جداً بالعيش معاً في شقة واحدة، أنا وأنت وبيس.

- ستبقين في الڤيلا طبعاً. إنني مسرورة لاقتناعك بذلك، لأن پول سعيد هنا، أسعد بكثير مما كان في تلك الشقة المحدودة في لندن. لديه أناس كثيرون حوله، أنجيلينا، لورنزو، والأطفال الإيطاليون الذين يأتون

مرتين في الأسبوع للعب معه. وماذا يريد غير ذلك؟.

فتنهدت نيكولا: «سأحنّ دوماً إلى الوطن، ثم هناك مشكلة دومينيكو».

- دومينيكو؟

- نعم سيكون الأمر صعباً للغاية فأنا أسكن هنا معه في المنزل نفسه، وأنا أعرف بأنه لا يهتم بي.

أومأت ڤانيسا بعطف: «من الأفضل لك أن يتزوج بيانكا ويبقى هناك في أميركا الجنوبية!».

بقيت نيكولا صامتة وقد جمد جسدها من الصدمة. ثم سألتها بصوت جاف: «هل هذا ما تظنينه سيفعله؟ هل قال هذا في الواقع؟».

- لا، لم يقل هذا ولكن ذلك واضحاً تماماً، أليس كذلك؟ لِمَ يجتاز إذن هذه المسافة كلها لأجلها فقط؟ لِمَ يعتني بها بهذا الشكل؟ لا بد أنه جاد بعلاقته بها. ثم، دعينا نواجه الأمر، قد تكون بيانكا معتوهة قليلاً، لكنها فتاة جميلة للغاية، ذلك الجمال الأسود العينين الذي يناسب رجلاً إيطالياً مثل دومينيكو.

سارت نيكولا متصلبة الجسم إلى خزانتها، وأخذت تبحث عن ثوب تلبسه. أخذت اصابعها تقلب الملابس لكن ذهنها كان غائباً. ڤانيسا محقة طبعاً، فدومينيكو بلا ريب مغرم ببيانكا. وربما لن يعود أبداً إلى «الڤيلا»، وقد لا تراه بعد ذلك أبداً، لعلّ هذا أفضل لها، ومع أن الفراق مؤلم لها الآن، إلا أنها ستشفى بسرعة، كما يشفى المرء من عملية جراحية. قالت ذلك في نفسها، بهدوء واتزان، لكن ذلك لم يشكل أي فرق، فالألم الذي لا يُحتمل ما زال هو هو.

* * *

١١ ـ زمردات آل فارينز

بعد أن رحل دومينيكو، وأعفيت نيكولا من واجباتها في المطبخ، أصرّ ليو أن تعود إلى الجلوس امامه لكي يكمل اللوحة. كان مستعجلاً لإنهاء اللوحة هذه لكي يقدمها إلى لورنزو في الحفلة.. أحضرت معها پول عدة مرات لكي يرسمه ليو، لكن پول ما كان ليقبل بالجلوس جامداً مدة طويلة لإنهاء تفاصيل الصورة، بل كان يتململ ويصيح طالباً النزول عن ركبتيها، وكان مهتماً جداً بالأصباغ وخرق التنظيف القذرة.

قال ليو ساخطاً وهو ينظر إلى الصبي الصغير الذي كان يعصر أنبوباً فارغاً، ثم يصيح فرحاً عندما تخرج قطرة ضئيلة من الصباغ الأبيض.

ـ إنه أشبه بثعبان الماء. اترك هذا من يدك، أيها العفريت! ستلطخ ثيابك وعندئذٍ ستلومني أنجيلينا.

وضحك پول ثم سار ينظر من عتبة النافذة إلى الأرض البعيدة فأسرعت نيكولا تمسك بخصره الصغير، ثم نظرت إلى أسفل بدورها، وقد دار رأسها لحظة. رأت ڤانيسا تسير بخطى سريعة في ممر الحديقة، وتنورتها الواسعة تنتفخ من الخلف كاشفة عن ساقيها الرشيقتين. وقف ليو بجانب نيكولا، فلما التفتت إليه رأت تعبيراً غريباً على وجهه الوسيم فراودتها الشكوك، لكنها كبحتها بحزم.. كانت نيكولا مثلهفة للاعتقاد أن ليو يخفي بعض الاهتمام بڤانيسا... لكنها رفضت أن تدع نفسها تتمسك بالأمل وقال ليو من فوق رأسها:

ـ يبدو أن أختك الجميلة غير مشغولة منذ رحيل دومينيكو.

قالت بحزن وهي تنظر من النافذة:

ـ آه! لم تكن ڤانيسا مهتمة بدومينيكو.

قال بشك: «لا؟ لقد أبدت مهارة في التظاهر بذلك».

ـ لطالما كان لڤانيسا الكثير من المعجبين، فهي تعيش في ذلك النوع من العالم. ولكن ذلك لا يعني شيئاً كثيراً.

ـ مجرد اعتياد؟ عبث، ثم وداعاً... أحياناً لا أظن أن دومينيكو يدرك ذلك.

سألته متمهلة: «أتظنه جاداً أكثر من ذلك؟».

ـ إنها رائعة الجمال.

وكان صوت ليو أبح، فالتفتت إليه بنظرة سريعة أخرى. كان يحدق إلى ڤانيسا، وقد زال عدم الحذر عن وجهه فترة قصيرة. وتنفست نيكولا بدهشة وارتباك لما رأته في ذلك الوجه الأسمر الآن. ونظر ليو إليها بسرعة فتقابلت أعينهما، واختنق وجهه غضباً. فقالت متلعثمة:

ـ آسفة يا ليو، فأنا... لم اكن أعلم... لم تعطني فكرة عن شعورك...

وتلاشى صوتها عندما أدركت سخافة الاعتذار، ماذا كان بإمكانها أن تقول؟ لقد رأت مرة أخرى شيئاً يحاول أن يخفيه... تماماً كما حدث عندما رأت الصور التي رسمها لڤانيسا، ففسرت ذلك، خطأ، معتقدة أنه يكرهها... إن تلك الرسوم هي نتيجة مشاعر غاضبة، لكنها كانت حباً وليس كرهاً، فالحب هو الذي دفعه رسمها.

كان من المفترض أن تبتهج لهذه الخاتمة السعيدة. فڤانيسا تحبه، ويبدو أنه هو يحبها أيضاً. تنهدت نيكولا، لقد نتج عن إدراكها هذا مشاكل جديدة، لقد علّمها زواجها بپاولو أن الحب وحده لا يكفي.. لقد أحبت پاولو، لكن ذكرياتها عنه تشوبها الآن حقيقة مرة وهي أن

الرجل الذي تزوجت به ليس كما اعتقدته. . لقد نمت كراهية غاضبة إلى جانب حبها له، كراهية لأعماله وليس له هو نفسه. لم تتوقف يوماً عن حبه، لكنها توقفت عن الشعور بالسعادة معه.

رأت أن ليو يكره بعض مزايا ڤانيسا، وقد رأى هذه الأخطاء منذ البداية، بعكسها هي. لقد انجذب إلى ڤانيسا ومع ذلك فقد رآها بوضوح. هل يمكن لأي زواج أن ينجح على أساس كهذا؟ هل يمكن لڤانيسا أن تكون سعيدة مع رجل مثله؟

مرر ليو يده على وجهه، وقال لها بصوت أبح: «كان عليك أن تمتهني الفن. فلديك دقة بالغة في الملاحظة، كما أظن. . . لكنني أرجو أن تنسي هذا، الآن. . . لن تفضي بأسرارك لشقيقتك؟ هل تعديني بذلك؟ هذا سرّ بيننا.

ونظر إليها برزانة وجدّ، فترددت.

هو لا يعلم طبعاً بشعور ڤانيسا نحوه ولكن هل سيغيّر رأيه لو عرف ذلك؟ لم تكن تعرفه جيداً لكي تحكم. لقد لاحظ في شخصية ڤانيسا امرأة طموحاً عنيدة يمكنها أن تتصرف بقسوة وأنانية لأجل مصلحتها.

وقد أوضحت رسومه لها هذا بعنف. وإذا علم ليو أن ڤانيسا تحبه، فهل سيغير رأيه فيها؟ وهزها ليو عابساً:

ـ هل سمعتني؟ عديني بألاّ تقولي كلمة لأختك.

ـ أعدك.

قالت هذا كارهة وهي تندفع لتمنع پول من أن يزحف خلف اللوحات المسندة إلى الجدار. . أمسكت به وحملته بين ذراعيها ثم ودّعت ليو قائلة إنهما ذاهبان إلى الغداء، وأومأ هو قائلاً:

ـ لقد انتهيت من پول. إنه اسوأ نموذج للرسام في العالم. سأركز الآن على خلقية اللوحة. بقي أمامي يوم واحد فقط لأنهيها.

فسألته: «هل تريد مني أن أحضر مرة أخرى؟».

هز رأسه: «لا. لا أظن ذلك. شكراً. لقد انتهيت من رسم وجهك».

ـ هل يمكنني أن أرى؟

لم تكن قد ألقت نظرة على الرسم بعد وكانت متلهفة إلى ذلك.

ـ هل يمكنني أن أرى؟

قال بحزم: «لا، عليك أن تنتظري كالجميع، سترينه في الوقت المناسب».

كانت «السنيورا فارينز» في الفناء عندما عاد پول ونيكولا إلى البيت. لم تكن أشعة الشمس قد وصلت إليها فبقيت في الظل. كانت ترتدي ثوبها الأسود المعتاد وتقرأ صحيفة، ونظاراتها على طرف أنفها. ونظرت من فوق النظارات باسمة.

ـ پول؟ كيف حالك اليوم؟

فقال وهو يقفز نحوها: «جائع. يمكنني أن آكل حصاناً».

ـ جائع إلى هذا الحد؟ ما أفظع هذا! من حسن الحظ أن أنجيلينا قادمة لتنقذك من الموت جوعاً.

وجاءت أنجيلينا تمسك به صائحة بسرور. ابتسمت لنيكولا ثم حيتها بعطف لم تكن نيكولا تتوقعه يوم وصولها من بلدها. كم تغيّر موقف الجميع منها، كانت تفكر في ذلك وهي تنظر إلى أنجيلينا الحاملة ابنها الذي كان يثرثر بحماسة وهي تصغي إليه مفتونة.

نظرت إليها السنيورا فارينز بإمعان.

ـ يبدو عليك التفكير اليوم، يا عزيزتي.

قالت نيكولا بشيء من المراوغة:

ـ ذلك لاقتراب موعد الحفلة.

فضاقت عينا المرأة: «الحفلة؟ وكذلك لوحة ليو، أليس كذلك؟».

ـ اللوحة؟ آه! تلك. . . نعم، أظن ذلك أيضاً.

www.elromancia.com

- أرجو ألاّ تكوني غاضبة جداً من بيانكا الصغيرة، لقد عاشت طفولة مضطربة إذ غالباً ما كانت بعيدة عن والديها في صغرها، وهي لا تشعر بانتماء حقيقي إلى أي شخص، حتى هنا في «الڤيلا».

قالت نيكولا بحزم: «أظنها أحبت پاولو. هكذا فهمت الوضع، كانت تحبه وكرهتني لأنني تزوجته. ولكن كيف يمكننا أن نفهم دوافع الآخرين؟ إن السبب الذي يطلعوننا عليه ليس دائماً السبب الحقيقي، فالناس، يبررون غالباً دوافعهم بشكل معقول حتى لأنفسهم».

هزت المرأة رأسها قائلة: «معك حق. قد تكون دوافع بيانكا أكثر تعقيداً مما نعرفه. ولكن ألا تظنين أن ما فعلته بيانكا يمكن أن يؤثر في شعورك نحو أخيها؟».

احمر وجه نيكولا: «نحو ليو؟ لا. لِمَ قد يؤثر؟ أنا أشعر بالمودة نحو ليو، إنه جاد أكثر مما يبدو عليه بكثير وأنا أشعر بالأسف عليه من بعض النواحي، فقد شعرت أنه وبيانكا ليسا أخوين متقاربين».

- لا. لم يعيشا معاً في طفولتهما. فقد أُرسل ليو إلى مدرسة داخلية ثم إلى كلية فنون، لذا لم يعرف بيانكا جيداً، في الحقيقة، إلا بعد أن جاء ليعيش في برج المراقبة. جاءت، هي أيضاً، إلى الڤيلا لكي تعيش معه في البرج، لكن لورنزو أصرّ على أن تسكن هنا في المنزل، وكان هذا مناسباً أكثر.

- كان لورنزو طيباً معهما.

فهزت السينورا فارينز كتفيها:

- إنهما من الأقارب!

ونفرست في نيكولا.

- سأكون صريحة معك يا عزيزتي. هل أنت مغرمة بليو؟

فهزت هذه رأسها: «لا».

ساد صمت قصير قالت السيدة بعده:

- أنا مسرورة، مسرورة جداً، يا عزيزتي.

فضحكت نيكولا: «ولماذا؟».

فأجابت السيدة باسمة: «لأنه ليس مناسباً لك».

* * *

ليلة الحفلة ارتدت نيكولا ملابسها بعناية ثم نزلت لتتفحص القاعات التي جهزت للمدعوين. أقيم في غرفة الطعام، مقصف للأطعمة الباردة على موائد متراصة، وضع عليها غطاء سميك، وأوانٍ فضية وكؤوس وفوط سفرة ناصعة البياض أضيفت إلى اللمسات النهائية لهذه المائدة الرائعة كما وضعت، أكوام الصحون من كل ناحية من المائدة، والزهور المنسقة بشكل بديع.

وفي الأمام، اصطفت أطباق السلمون مع البيض والكافيار والأرز البارد مع القريدس والخضار، وشرائح رقيقة من اللحم والشمام، أفخاذ دجاج باردة، جبن ومخللات، وأطباق كثيرة أخرى خاصة بالحفلات.

أمسكت نيكولا كأساً لترى مدى نظافته، ثم اومأت راضية وهي تمسح الكأس بفوطة، ووضعت اللمسة الأخيرة على الأزهار، ثم وقفت بعيداً تتأمل المشهد، ولم تجد فيه أي شائبة.

جاء لورنزو من خلفها فأجفلت متفاجئة. ونظرت إليه مستفهمة.

- حسناً، هل أنت مسرور؟

فنظر حوله: «بكل تأكيد. كل شيء يبدو رائعاً».

كان يتكلم الإنكليزية مازحاً، ثم عاد إلى لغته، بابتسامة ارتياح عريضة.

- تبدين رائعة الجمال، يا عزيزتي. سأكون مزهواً بك الليلة.

- إنها أشبه «بعصفور النار»

وكان هذا صوت ليو الذي جاء من الفناء، فالتفت إليه الوجه المغضن بلهفة: «أين اللوحة؟».

- لم تنته تماماً. لم أضع لها الإطار بعد، وما زالت بحاجة إلى اللمسات الأخيرة.

بدت خيبة الأمل على لورنزو.

- ولكن هل يمكنني أن أراها؟ وعدت بأن تعرضها على المدعوين في الحفلة الليلة.

فهز ليو كتفيه:

- كما تشاء، لقد أحضرتها معي، ولكن إذا وضع أحد إصبعاً عليها، فلن أكون مسؤولاً، فالألوان لم تجف بعد تماماً وقد تستغرق أياماً.

قال لورنزو متوسلاً: «دعني أراها».

عاد ليو إلى الفناء ثم عاد على الفور يجر عربة بعجلتين وضعت عليها قاعدة اللوحة التي ركزها في زاوية ثم رفع عنها الغطاء.

تقدم الآخران نحوها ببطء، كان للصورة خلفية لم تعرف نيكولا، في البداية، ما تمثله، لكنها ما لبثت أن ادركت فجأة أنها حديقة «الثيلا»، الممرات والأسيجة، أشجار السرو الخضراء. النافورة في الوسط. وكانت هي جالسة في مقدمة الصورة، وبول على ركبتيها، كانت تبتسم للطفل، ابتسامة حنان غامضة جعل وجهها غير مألوف لديها.. شعرت بغرابة بالغة وهي تحدق إلى اللوحة التي تمثلها، إنها تشبهها، ولا تشبهها في الوقت نفسه.

أمّا بول، على كل حال، فكان هو نفسه... بوجهه الرائع، وبشرته الذهبية.. كان يضج بالحياة ضحكاً وعبثاً. وكان يقفز ليقبلها، ويده الممتلئة على عنقها. الشعر الأسود، العينان السوداوان والأنف الروماني كلها كانت موجودة، وقد لطّفتها الطفولة، ولكنها رغم ذلك تذكّر بملامح الرجل العجوز الذي وقف أمام الصورة وقد غمره الصمت.

كان ليو شاحب الوجه. وتحرك متوتراً وهو يراقبهما كالصقر.

- حسناً؟

سألهما بصوت أبح. فاستدار لورنزو ينظر إليه ببطء ودون أي كلمة فتح ذراعيه على اتساعهما، فاندفع ليو بينهما دون وعي.. قبله لورنزو على الوجنتين، وربت على كتفيه وقد بدت الدموع في عينيه السوداوين.

أخذت نيكولا تنظر إليهما بتأثر وقد أوشكت هي الأخرى على البكاء. وعندما تحرر ليو من عناق عمه، تحوّل ينظر إليها، فابتسمت له. وقالت:

- إنها لوحة رائعة يا ليو! لقد خطفت مني الأنفاس.

حلقت نفس ليو، في السماء. فأمسك بها يعانقها بحرارة. كان يمسك بكتفيها في الوقت الذي دخلت فيه ڤانيسا الغرفة، بالضبط. لتقف مصعوقة تحدق إليهما شاحبة الوجه متسعة العينين. رفع ليو نظره وهو يترك نيكولا، فرآها، وفي غمرة سروره، ضحك بمكر، وقال:

- الليلة مهرجان الحب، ولن يفلت أحد دون دفع غرامة.

ومد يده يجذب ڤانيسا من ذراعها، ثم انحنى ليضمها.

حاولت الإفلات منه بغضب وهي تدفعه بصدره، لكن الحب تملك ليو، فعاد يجذبها بعنف بين ذراعيه ثم ضمها إلى صدره بقوة.

بدت الصدمة على لورنزو ثم التسلية. فخرج بصمت على أطراف أصابعه غامزاً نيكولا لكي تتبعه.

وإذ فوجئت ڤانيسا بذلك، ذابت بين ذراعي ليو رافعة يديها تمرّرها في شعره الجعد. وساد المكان صمت طويل، وإذا بليو يدفعها عنه فجأة، ثم ينظر إليها بعينين ضيقتين، قبل أن يخرج من الغرفة.

وبقيت ڤانيسا ترتجف، ويدها على صدرها.

* * *

وقف لورنزو عند مدخل الصالون الرئيسي يستقبل المدعوين،

باسماً ببذلة العشاء الرسمية السوداء، ونيكولا إلى جانبه بثوب أبيض طويل من الشيفون ذي حزام قرمزي وشعرها معقوص في حلقة ذهبية ينساب منها على كتفيها.

كانت فرقة موسيقية صغيرة تعزف في الفناء الألحان الشعبية. أما الباب المؤدي إلى الحديقة فقد تُرك مفتوحاً على مصراعيه كي يخرج من يشاء من المدعوين إلى الحديقة للتنزه في ضوء المصابيح الملوّنة والاستمتاع بأنغام الموسيقى البعيدة.

وبعد فترة وجيزة، تملّك نيكولا إحساس غريب، جعلها تشعر وكأنها في عالم آخر.. راحت تصافح أفراد اسرة فارينز واحداً تلو الآخر، وكانت الأسماء تقرع سمعها بينما الوجوه تأتي وتذهب، وجوه سمراء، باسمة، فضولية كلها تحمل شبهاً غريباً ببعضها البعض، مدحوا ابنها وهم ينظرون بإعجاب إلى اللوحة التي وضعها لورنزو في مكان ظاهر قريب منه، وحدقوا إليها ملاحظين عطف لورنزو عليها.

وقفت ڤانيسا جانباً، مع ليو والسنيورا فارينز مؤلفين المجموعة الثانية من المستقبلين، كان ليو مميزاً للغاية في ملابس السهرة السوداء، إلاّ أنه بدا شاحباً منطوياً على نفسه بشكل غريب في هذه المناسبة المرحة. وبين آن وآخر كانا، هو وڤانيسا، يتبادلان النظرات. كانت أعينهما تتقابل ثم تتحولان بسرعة. كانت ڤانيسا ترتجف قليلا، وقد تألقت عيناها الزرقاوان وبدتا محمومتين. لم تتحدث إليه منذ ذلك العناق الذي جرى بينهما.

عندما وصل معظم المدعوين، أخذ لورنزو ونيكولا يجولان بينهم، يتحدثان على مهل إلى أولئك الذين يريد منها لورنزو أن تتعرف إليهم.

ابتسمت وأجابت على أسئلة مهذبة بأجوبة مهذبة.. ولكنها كانت تتساءل بكآبة واستسلام أين دومينيكو الآن... وفي أي حرارة يجلس مع بيانكا، يرشفان القهوة وينظران إلى نجوم سماء أميركا الجنوبية البعيدة.

شعرت بالحسرة تتآكلها، ولكن عليها أن تحافظ على المظاهر من أجل لورنزو، وقد كلفها هذا الكثير من الابتسام. نظرت أكثر من مرة إلى أختها التي بدت شاعرية هشة في ثوبها الأزرق وسط مجموعة من المعجبين، وكان ليو في مكان ما يراقب ڤانيسا هو أيضاً بعينين ضيقتين.

أخذت نيكولا تتساءل عما إذا كان هناك أمل لهما. إذا كان أحدهما مغرماً حقاً بالآخر، فقد يتخطيان كل الحواجز التي يمكن أن تقف بينهما.. أخذت نيكولا تفكر بحزن أن الحب يمكنه أن يذلل كل العقبات..

اقتربت سيدة ممتلئة الجسم ترتدي ثوباً أحمر، تحمل بقايا جمال تمتعت به ذات يوم، ووقفت تتحدث إليها فاستدارت تصغي إليها وهي تبتسم. وغمز لورنزو لها بعينه، فبادلته النظر شاكرة له لطفه.

بعد ذلك بنصف ساعة، رفع لورنزو يده يدعو الجميع إلى الصمت وقد وقف على كرسي لكي يتمكن الجميع من رؤيته.

ـ في غرفة الطعام تجدون مقصفاً شهياً وأرجو أن تستمتعوا جميعاً بالطعام. ولكن، أولاً، لدي مناسبة صغيرة أحتفل بها.

ووضع يده في جيبه ثم أخرج علبة.

ـ هناك تقليد في الأسرة لا شك أن جميعكم سمع به، وهو أن عروس الابن الأكبر ترتدي زمردات آل فارينز.

ونظر إلى وجه نيكولا الذي ساده الذهول فجأة، ثم ابتسم وتابع:

ـ حسناً نيكولا هي أرملة ابني وهي لم تمتلك، بشكل رسمي، ما هو حقها.. إنها تعلم، ولا بدّ انكم تعلمون أيضاً أنني لم أرحب بزواجها. اريد منكم جميعاً أن تسمعوني أعرب لها الآن عن شديد ندمي على تلك الحماقة، فهي أكثر مما أستحق... إنها أكثر طيبة وجاذبية من أي عروس أحضرها فرد من آل فارينز إلى الأسرة، وأنا أزهو وأتشرف بأن أمنحها هذه الزمردات.

وانحنى يقدم إليها العلبة.

أخذتها بشكل آلي، وحدقت إليها، ثم تمتمت متلعثمة كلمات غير مفهومة، وضحك لورنزو:

- أترون كم هي متواضعة، كنتي الإنكليزية هذه؟ تقول إنها لا تريدها. هذه الزمردات التي حفظها آل فارينز مئات السنين! ومات الرجال لأجلها، ومع ذلك ترفضها نيكولا!

ضحك الضيوف بأدب، ولكن كان هناك لمعان جائع فضولي في أعين بعضهم وهي تحدق في العلبة الزرقاء.

استعادها لورنزو منها، وهو ينظر بحنان إلى رأسها المنحني. لكن الارتباك الذي تملك نيكولا، دفعها للتحديق إلى الأرض.

فتح الرجل العجوز العلبة، وأخرج العقد، فتدلّى من أصابعه وهو يتوهج كلهب أخضر ثم انحنى ووضعه حول عنقها. وأجفلت عندما لامست الأحجار الكريمة الباردة بشرتها. وتأوه الضيوف مسرورين وهم يحدقون إلى هذه الزمردات الرائعة. لكن نيكولا شعرت وكأنها وقعت في فخ سلبها حريتها.

رفعت بصرها بيأس، وإذا بقلبها يقفز بهجة وألماً... وهي ترى، عند باب الصالون، دومينيكو واقفاً.

قابلت عيناه الرماديتان عينيها بتأمل هادىء، ودون وعي، أرسلت إليه ضراعة صامتة تطلب العون. تقدم نحوها عبر الزحام فابتسم له لورنزو ابتسامة عريضة، وقد أضاء السرور والعطف الوجه المغضن:

- دومينيكو، ها قد عدت! كيف حال بيانكا الآن؟

- إنها بأمان مع والديها، إنما الآن، يا لورنزو، لقد احتكرت نيكولا وقتاً كافياً. وأظن أن بإمكاني أن أحظى بسرور اصطحابها إلى العشاء.

تنقلت عينا لورنزو الذاهلتان بينهما ثم أشرق وجهه بابتسامة ماكرة، وقال بحماسة: «طبعاً... طبعاً».

مدّ دومينيكو ذراعه وهو ينحني، فتأبطتها نيكولا بخجل، وتفرق الجمع، وتبعت الأعين الفضولية سيرهما نحو الفناء.

ابتلعتهما الظلال، وعزف الموسيقيون ووجوههم تنضح عرقاً وهم ينظرون إليهما سائرين عبر بوابة الحديقة إلى الليل الذي تتألق فيه النجوم.

ارتجفت ساقا نيكولا وهي تسير، وابتلعت ريقها. ماذا تعني هذه العودة؟ هل معناها أن دومينيكو لا ينوي الزواج ببيانكا؟ أم أن الزواج قد أرجىء فقط حتى تستعيد صحتها؟

رمقته بنظرة، فإذا وجهه هادىء، غامض كالعادة.

- لم أتوقع عودتك الليلة. لم تمكث طويلاً هناك.

- مكثت فترة أطول مما كنت أريد، فترة بدت كأنها الأبدية.

تساءلت عما يعنيه بكلامه. وابتدأ نوع غريب متردد من السعادة يتملكها. وخافت أن تصدق ما رأته في عينيه.

- أخبرتني أمي بأنها واثقة من أنك لا تحبين ليو.

قال ذلك فجأة، ولهجته الفظة تبعث على التفاؤل بشكل مثير، ذلك أن دومينيكو لم يحدث أن فارقه الاتزان كما بدا الآن، وقالت برقة:

- لقد أخبرتك بذلك بنفسي.

وقف جامداً واستدار نحوها.. كانت السماء المظلمة الدافئة تمتد فوقهما والنسائم تتحرك عبر أشجار السرو.

رفعت نيكولا بصرها إلى وجه دومينيكو الأسمر وعينيه الواسعتين المتشككتين. هل هي مجنونة أم ما تراه في وجهه هو جوع متزايد؟ أمسك بمرفقيها وهو يتمتم بصوت ثقيل:

- أتعلمين أنني رجل أغار من ليو؟ وأغار من پاولو، ومن كل رجل نظر إليك؟ أظنني احببتك حتى قبل أن أراك. من المرة الأولى التي رأيت فيها تلك الصورة التي أرسلها الي پاولو منذ زمن طويل...

وتركها ثم أخرج محفظته التي أخرج منها صورة صغيرة قد اصفرت وتجعدت قليلا. حدقت إليها نيكولا غير مصدقة، ثم ضحكت. لقد رأت وجهها الذي كان أصغر مما هو الآن بسنوات ينظر إليها.

ـ وهل احتفظت بها؟

كشّر بجفاء:

ـ طوال تلك السنوات! نعم، حتى إنني نسيت پاولو بعد لقائي بك في انكلترا. ذلك انني أدركت، حينذاك يا عزيزتي...

كانت ما زالت غير مصدقة فقاطعته: «لكنك كنت فظاً معي جداً، حينذاك».

ـ ذلك لأن الجوع أعياني. نيكولا، هل يمكنك...

وتلاشى صوته ولكن عينيه تابعتا الحديث، وضحكت وتوقفت أنفاسها:

ـ أواه! يا دومينيكو.

وإذا بها بين ذراعيه. السماء والنجوم والحديقة، كل ذلك تلاشى في دوامة من الشرر اكثر التهاباً وإثارة من زمردات آل فارينز، وارتمت بين ذراعيه وتشبثت به، بكل الحب والجوع الذي اختزنته طويلاً، فضمها بعنف، خشيت معه أن تحطم عظامها، وأخيراً رفعت رأسها والعالم يدور حولها، لكنها ضحكت وهي تحيط وجهه بيديها.

ـ أحبك يا دومينيكو فارينز، أكثر مما أحببت پاولو، وأكثر مما ظننت أن امرأة قد تحب رجلاً. وإذا لم يرضك هذا، فأنا آسفة... فهذا أفضل ما يمكنني فعله اليوم.

وضحكت له.

ـ ولكنني أرجو أن أقوم غداً بشيء أفضل!

* * *